مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد الأول – المجلد الثاني
مارس 2018
ISSN: 2522-3380

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

تمثّلات الربيع العربي في نماذج من الروائية العربية المعاصرة

رشا عبد الفتاح محمد جليس
قسم اللغة العربية للناطقين بغيرها || مركز اللغات || الجامعة الأردنية || عمان || الأردن

الملخص: ينبثق الأدب والفن من رحم الواقع المعيش بكل حيثياته وأبعاده الاجتماعية والسياسية وكون أن واقع الربيع العربي وثوراته يشكّل منعطفا هاما في تغير الواقع العربي اليوم وإعادة رسم وجه جديد للمنطقة العربية سعت هذه الدراسة للبحث في انعكاسات واقع بعض الثورات العربية(المصرية، الليبية، السورية) وتتبع مظاهرها وتجليتها الأيديولوجية في الروائية، وربط مميزاتها من خلال التحليل النقدي لأربع روايات عربية معاصرة تتناول جوانب الثورة من ناحية التعبئة الشعبوية والإعلام وسرعتها ونتائجها المتباينة وهي: رواية إنه الدم تعكس المشهد المصري ورواية فرسان الأحلام القتيلة تتناول المشهد الليبي وروايتا القوقعة ويسمعون حسيسها للمشهد السوري. كما تركزت الدراسة على استكناه أبرز النتائج التي انعكست على هذا التمثيل حيث أظهرت الروايات نتائج ثورية متباينة مماثلة لواقع ثوري متباين، إذ لم يكن النتاج الروائي بالقدر العالي من المعالجة على صعيد الرؤية والبناء الفني. حيث كانت رواية إنه الدم أفضل الأعمال في رسم أبعاد الثورة المصرية، في حين لم تعكس رواية فرسان الأحلام القتيلة واقع الثورة الليبية بنجاح على صعيد الرؤية والتشكيل. أما التجربة السورية فقد اختلفت تماما لأنها اقتصرت على أدلجة الصورة الثورية وحصرها في واقع المعتقلات. وقد اعتمدت الدراسة في التحليل على الاشتغال على آلية المنهج الاجتماعي والنفسي لمحاولة استكشاف أهم الظواهر الاجتماعية التي أبرزتها الثورة ومدى الاستجابة النفسية لها على الشخصيات الروائية.

الكلمات المفتاحية: الربيع العربي، الروائية العربية المعاصرة ، الواقع السياسي، الثورة، الإعلام، الأيديولوجيا، السلطة، الشعب.

مقدمة:

شهد العالم العربي في عام 2010 موجة من الانتفاضات الشعبية التي بزغ نورها على يد البوعزيزي الذي أشعل نار ثورة الياسمين في تونس، ومن ثم تفشت عدوى الثورة في دول عدة غيّرت معها وجه الشرق الأوسط وقلبت المعادلات السياسية والأنظمة. بالتأكيد معظم الشعوب العربية التي شحنت نفسها وهبت ثائرة في ميادين وساحات البلاد مطالبة بالإسقاط عادت اليوم لتراجع نفسها في ماهية كلمة الثورة وحقيقتها لتخرج بحالة أشد استياءً مما كانت عليه سابقا في مرحلتها الأولى.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل واقع الثورات العربية الحديثة فيما عرف "بالربيع العربي" في عدد من الروايات العربية المعاصرة، وتحاول الدراسة استقصاء أبرز الخصائص الثورية لكل دولة هبت ثائرة ضدّ نظام الحكم. كما تسلط الضوء على انعكاسات الثورة والثوّار ضد النظام الاستبدادي وواقع الظلم والفساد للنظام السابق في كل دولة وقعت فيه هذه الأحداث. وبوصف الروائية مرآة دقيقة للتعبير عن محتوى الواقع بكل أبعاده السياسية الاجتماعية والثقافية، فإن الباحثة ركزّت على تحليل نماذج مختارة للروايات المعاصرة التي تتجسد فيها الواقع الثوري وسقوط الأنظمة وواقع الظلم والطغيان الذي اتصفت به.

ونظرا لأهمية هذه المرحلة التاريخية التي يعيشها الشرق الأوسط منذ بداية الأحداث إلى يومنا الراهن، وخطورة هذا المنعطف السياسي الذي قلب الموازين وانطلاقا من ثنائية العلاقة بين الواقع السياسي والأدب، فإن الباحثة وجدت ضرورة ودافعا هاما لتنفيذ هذه الدراسة والقيام بها لمحاولة البحث في صور وانعكاسات هذه الثورات والاتجاهات الأيديولوجية(الدينية والمعلمنة والمسيّسة) التي تضمنتها كونها جزءا هاما من المضمون السياسي المرتبط

بالثورة، وبيان خصائص كل ثورة على حدة في الروائية العربية. وقد نشرت الباحثة هذه الدراسة مترجمة للغة الانجليزية في مجلة الدراسات الأدبية والفكرية التابعة لمركز جيل للدراسات أوائل عام 2017 ثم أعادت نشرها باللغة العربية أوائل عام 2018 في المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث.

وقد عمدت الباحثة إلى اختيار رواية القوقعة للكاتب مصطفى خليفة الصادرة عام 2009 لتكون مرحلة سابقة لما قبل الثورة السورية حيث تعرض الروائية نبوءة الثورة وكواليسها قبل وقوعها عام 2011 وكذلك اختارت الباحثة رواية إنه الدم للكاتبة نوال السعداوي التي تتضمن صور الثورة المصرية في ميدان التحرير ورواية فرسان الأحلام القتيلة التي تناقش واقع الظلم والثورة في مبنى الضمان ضد نظام القذافي في ليبيا ورواية يسمعون حسيسها للكاتب أيمن العتوم حيث تختزل أسباب الثورة السورية وتصف طبيعة النظام السوري داخل أقبية سجن تدمر.

وقد حاولت الباحثة جاهدة العثور على نماذج مختلفة للثورة التونسية كونها أول ثورة من ثورات الربيع العربي وثورة اليمن- أيضاً- لكنها لم تتمكن من العثور على تجارب روائية في الفترة التي شرعت في العمل على الدراسة، وهو ما شكّل صعوبة في تغطية صورة بانورامية شاملة لكل الدول الثورية. ومن الجدير بالذكر القول في ذات السياق أن النتاج الروائي بدا شحيحا في بعض الدول في تصوير وتجسيد المشهد الثوري حيث اتسمت اليمن وتونس بشح النتاج الروائي، إذ لم تعثر الباحثة على نماذج روائية للمشهد اليمني بينما وجدت رواية واحدة هي ورقات من دفتر الخوف للكاتب أبي بكر العيادي تتناول الثورة التونسية لم تتمكن من الوصول اليها.

أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة؛ فإن الباحثة لم تتمكن من العثور على دراسات أدبية وفيرة تتناول الموضوع وربما هذا يعود إلى حداثة موضوع البحث وجدته وفجائيته بالنسبة للجمهور العربي والروائيين في آن معا. ولقد اطلعت الباحثة على دراسة - ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني عشر: الروائية العربية في الألفية الثالثة ومشكل القراءة في الوطن العربي في الجزائر- بعنوان: صورة الربيع العربي في الإبداع الروائي المغاربي، وتتناول تحليلات نقدية لرواية ورقات من دفتر الخوف حول الثورة التونسية. وكذلك تحليلا نقديا لروايتين تتناولان المشهد الليبي هما: فرسان الأحلام القتيلة ورواية عدو الشمس البهلوان الذي صار وحشا لكاتبها محمد الريحاني. ورواية الورم للروائي إبراهيم الكوني التي تعتبر رؤية استشرافية ونبوءة للربيع الليبي. وهناك دراسة مطولة تتناول الربيع الليبي في رواية فرسان الأحلام القتيلة للباحث عذاب الركابي نشرت عام 2013 في مجلة علامات تتسم بالتركيز على البعد الذاتي والانطباعي في تحليل الروائية وتفتقر للرؤية النقدية والموضوعية. وبالنسبة للمشهد السوري فقد اطلعت الباحثة على بعض الأعمال التي عالجت الثورة بمدلولات رمزية بعيدة كرواية سجاد عجمي للكاتبة شهلا العجيلي.

وقد تضمنت الدراسة مقدمة ومحورين رئيسيين في التحليل الأدبي وخاتمة :

المحور الأول: ويناقش مفهوم الثورة الراديكالي والبناء الكلي بعد الهدم سسيولوجيا ويشمل على نقاشات لأهم الإصدارات الحديثة للمفكرين والمحللين الذين قدموا مساهمة سسيولوجية في تحليل الجوانب السياسية والاجتماعية لمفهوم الثورة العربية في العصر الحديث وتحليل خصائص هذه الثورات الجديدة والرقمية، ولذلك يركز هذا الجزء من البحث على التحولات الفكرية وأثرها على المحتوى الثوري. وقد تناولت الباحثة أهم المميزات التي اتسمت بها هذه الثورات وهي: الفجائية والسرعة والرقمية والشبابية ومدى أهميتها وحضورها في الجانب الأدبي.

المحور الثاني: يركز على التحليل النقدي في النتاج الروائي ومحاولة ربط الأبعاد والخصائص الثورية في المحور الأول بالصورة الأدبية ورؤية الكاتب الخاصة لهذه الثورة انطلاقا من القيام بربط العلاقة السسيوثقافية التي تجمع فضاء الروائية الممتد زمانيا ومكانيا بالمحتوى الثوري المميز بالمحور الأول، حيث إن الفن الروائي يمتاز بنقل هذه التجربة وتجلياتها ونتائجها برؤية الروائي الذي حاول أن يجيب عن أسئلة الثورة وأسبابها ومدى قدرتها على

النجاح والاستمرار والبناء لاحقا. كما عالج هذا المحور ارتباط الرؤية الأيديولوجية للكاتب وعلاقتها بالثورة كما يظهر ذلك بوضوح في التجربة السورية.

واعتمدت الدراسة على اتباع المنهج الاجتماعي والنفسي في عملية تحليل النصوص الأدبية وذلك لقدرة المنهجين على كشف واستكناه انعكاسات الثورة على الشخصيات الروائية ورؤيتها لهذه الأحداث، كما أننا ندرك أن طبيعة الثورة وثيقة بطبيعة المجتمع وردة فعله على هذه التقلبات والمتغيرات. وبالتالي فإن الاشتغال على آلية المنهج الاجتماعي والنفسي يعين الباحثة على كشف عوالم المجتمع وسبر غور أبعاده النفسية كذلك على الشخصيات.

فيما يتعلق بنتائج الدراسة فقد وجدت الباحثة بعد الاشتغال على التحليل النقدي للروايات الآنفة الذكر أن النتاج الروائي لم يكن بالمستوى الأدبي المتوقع في نقل وتجسيد صورة الثورات الشعبية، حيث أظهرت رواية المشهد الليبي بطئا سردياً وضعفا في البنية الدرامية إضافة إلى انعدام تعددية الشخوص ومع ذلك استطاعت الروائية أن تغطي جزءا من مضمون وصورة الثورة وشعبيتها وأبطالها وانتقادات المجتمع وسؤال المثقف وواقع التعليم وتأثرها بالربيع المغربي والمشرقي، وأظهرت رواية المشهد المصري واقع السلطة السياسية والاجتماعية الفاسد وفساد السلطة الرابعة وحرية التعبير، كما وحدت الثورة الشبابية في مصر بين ثورة المرأة وعلى الرجل وثورة الشعب على الرئيس، وقد كانت رواية إنه الدم من أفضل الأعمال في المضمون التي عكست صورة التجمع المصري في ميدان التحرير.

أما الثورة السورية فقد تمتعت بخصوصية مختلفة عن المشهد الليبي والمصري في المعالجة والمضمون، لأنها وقفت على نقل صورة النظام وممارساته في المعتقلات السياسية وواقعية السجن وحلم الخلاص، فتركزت المعالجة على إبراز واقع السوريين في ظل حكم نظام البعث وارتبطت بإبراز المحتوى الأيديولوجي بشقيه الليبرالي والإسلامي وفقا لرؤية الكاتب وانتمائه السياسي.

وفي الختام أرجو أن تكون هذه الدراسة قد حققت هدفها في رصد الثورات الشعبية أو دوافعها واستكناه خصائصها بما يفيد القارئ، والله وليّ التوفيق.

حديث الثورة:

من الملاحظ جداً أن مفردة الثورة لم تلتصق بالحركات السياسية تاريخيا رغم احتوائها على المفهوم الثوري كما لم يكن لها سوى الشروحات الحرفية في المعاجم اللغوية وهي بمعنى الهيج[1]، وإن دلالتها السياقية بقيت تعني (خروج أو فتنة) كفتنة الزنج وخروج القرامطة. ويرى الدكتور عزمي بشارة "أن مفهوم المؤرّخين العرب لما يصفه المؤرخون المعاصرون بـ "الثورة" خاضع للسياق الذي حكم إنتاجه، وهو اعتبار الخروج على الجماعة تقويضاً للعمران. والخروج على الجماعة أو الأمة هو الأصل في ذم الخوارج، أما الخروج على السلطان الغاشم فقد اختلف في شأنه، فالبعض اعتبره خروجا على الجماعة، والبعض الآخر اعتبره أمرا مشروعا، بل واجبا في بعض الحالات"[2]. أما غربيا فتشير حنة أرندت إلى أن الجذر اللغوي لمفردة الثورة **(revolution)** يعود إلى "الصورة الدائرية والفلكية لحركة الكواكب له ومن ثم استخدمت بمعنى استعاري مضاد للتعبير عن المصير الإنساني واكتسب صورته البيولوجية، ليصبح أساس النظريات الاجتماعية الراديكالية لروح العصر الحديث للثورة الفرنسية".[3]

(1) راجع لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ج4، ص109

(2) في الثورة والقابلية للثورة، عزمي بشارة، معهد الدوحة، 2011، ص8

(3) حنة أرندت، ترجمة: عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، 2008، بيروت ، ص82

في هذا الطور الجديد تبدو مفردة الثورة مستحدثة وجديدة بمعناها الجذري اليوم؛ إذ ظلت محددة الاستعمال بالمعنى الراديكالي والسياسي تاريخيا وغير دقيقة، لأنها وظّفت للتعبير عن السياق التاريخي لها كالحركات المعارضة أو الفتن الداخلية أو الخروج عن النظام السياسي. بينما ارتكز مصطلح الثورة حديثا على مبدأ الحرية الفردية التي اعتبر "أداة التقدم العلمي للبشرية، تحت مبدأ الحرية والمساواة البشرية أو انفجارات جماهرية تعبيرا عن سيكيولوجية الحشد أو ضرورة اقتصادية ملحة للطبقة البرجوازية أو البرولتارية"[(4)].

إن مفردة الثورة مرت بمرحلة "الهيج" في بداية القرن العشرين حيث بقيت تشير إلى الهبّة الشعبية كثورة عرابي بمصر وثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب[(5)]. ودخلت مرحلة النضج والمعنى التحرري في نهاية حكم العثمانيين، حيث بدأ معناها يختلف مع بروز الفكر الغربي وانتشاره وارتبط بثورة العرب ضد الأتراك وثورات عصر الاستعمار بعد فترة طويلة من عمليات الإصلاح السياسي والديني والفكري على يد عدد من المصلحين والمفكرين الذين ركزوا فكرهم السياسي على مبدأ الخلاص من "الاستبداد" كان على رأسهم الكواكبي.

ويرى بلقزيز أن الطريق الذي سلكه الجيل الإصلاحي قبل الثورة العربية الكبرى حاول "عقد مصالحات بين المفاهيم السياسية الحديثة وبين المنظومة السياسية الشرعية المتعارضة مع آلية الحداثة (الديمقراطية والشورى)"[(6)]، لكنه سرعان ما انتهى الفكر الإصلاحي والثوري بعد السقوط العربي والتوغل الاستعماري فيه. وهنا دخلت مفردة الثورة معنى الحرية والخلاص ضد الاستعمار الأوروبي لتحقيق الاستقلال الوطني، إلا أنه ظل فكرا وقتيا لا يتجاوز حدوده المكانية والزمانية والفردية الخاصة لكل دولة والتحرر العسكري من انتداب أو وصاية لم تستطع الثورة مجابهة الكيان الصهيوني والانفصالات القطرية والحزبية ونمو الفكر الاستبدادي من جديد بعده والفكر الإسلامي السياسي والأصولي والفكر القومي.

فجُمّد الفكر الثوري بها وركد عقودا طويلة تحت نزعات استبدادية انتهت بحالة نموذجية ثورية تقلب المتغيرات من الداخل، وفسرت على أنها النموذج الحقيقي العربي في صنع القرار السياسي قادته الأفراد والحشود، فانتشرت العدوى الثورية وثورة الجياع والمقهورين طوال سنوات الحرمان والفقر والبطالة في عدد من الدول بشكل سريع وصادم، وكذلك "علا صوت الحراك الاصلاحي المطالب بالتعددية الحزبية ومساحة من الحرية والديمقراطية ومحاربة الفساد الذي حرك سطح البحيرة الراكدة منذ عقود طويلة، "ونجح في رسم مسار إصلاحي تفاوتت صلاحيته في الأردن والجزائر والمغرب والبحرين"[(7)] أطلق عليه ربيعا عربيا تيمناً بربيع الأوروبيين برغم مفارقة الاسم الذي لم يحمل الاقتتال العربي والإقليمي على الواقع العيني.

جاء الخطاب الثوري قويا وعنيفا للشعوب أدخلها في مرحلة أولى هي الالتفات الوحدوي ضد هدف معلن عبرت عنه مفردة "الإسقاط" التي انبجست من لاوعي الشعب إلى الميادين العامة، غير أنه تبعتها المرحلة الثانية فكانت الأخطر على الإطلاق، لأنها كشفت وعرّت الوعي السياسي الضحل لمجتمعات عربية لم يكن لها يوم دور سياسي أو تفاعل مع النظام السياسي والتعددية الحزبية تكاد تكون متضمنة دون حراك.

ولعل ما جعل ثورات الربيع العربي قضية جدلية ومؤرقة للدارسين في التاريخ الحديث انطلاقا من مشهدها البانورامي الظاهري هو اكتسابها خصائص ثورية متميزة، أخرجتها عن شاكلة "النماذج التي مثلها لينين أو ماتسي تونغ أو غيفارا وأبعد ما تكون عن النموذج الخميني أو حركات التحرر الوطني أو الانقلابات القومية التي حدثت في العالم

(4) موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ط1، ص870

(5) عزمي بشارة، ص18

(6) أسئلة الفكر العربي المعاصر، ص149

(7) وثائق ويكليكس وأسرار ربيع الثورات، حسن مصدق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012 ص183

العربي على يد نخب عسكرية تحت مسميات الوحدة والحرية والاشتراكية والعدالة[8]، ووضعتها أمام مفترق طرق جعلت البعض يعتبرها نقطة تحول تاريخي وهذا الاتجاه الذي أعلن تأييده التام للثورة "معتبرا أن التغيير مهما كانت إيجابياته بعيدة الأمد أفضل بكثير من الوضع القائم وقتامته"[9]. كما عدّها البعض مرحلة جديدة أقرب "لصناعة الفرصة السياسية منها إلى الثورة نتيجة العسر الهيكلي في استقبال الحداثة"[10] لدى المجتمع العربي، أو المشكلة في القصور العقلي العربي في امتلاك الوعي السياسي لعملية إعادة البناء بعد التفكيك.

وفيما نظر اتجاه آخر لهذه الثورات بعين الشكك والريبة، وهذا منشأه بتطبيق نظرية "الفوضى البناءة أو الخلّاقة" التي يعرفها محمد الرميحي على أنها مصطلح أطلقه المحافظون الجدد"[11] تجاه مسارات التغيير في الشرق الأوسط، ومفادها أن هذه المجتمعات راكدة سياسيا ولتحريكها لا بدّ من إحداث خلخلة وفوضى حتى يحصل التغيير". وفي المقابل رفض البعض هذه الثورات تشبثا بقاعدة الاستقرار والأمن السلمي الذي فقدته عدد من الدول التي شهدت ثوراتها فخ الفشل والاقتتال الداخلي فانحازت للميل والسكون والإصلاح التدريجي بدلا من أطروحة الثورة العارمة، "لأنه يوفر على المجتمعات تكاليفاً كبيرة تضطر لدفعها في خضم اندلاع الثورة، ذلك أن الثورة عندما تتفجر مدفوعة بأسباب حقيقية، تطال شظاياها كل جوانب حياة المجتمعات وتزلزل ما استقر من زمن طويل"[12].

إن مفهوم الثورة الفرنسية الراديكالي وتأثيره المتسع لم يكن ليخرج إلى حيز الوجود بأسره، بفضل ثورة الخبز والحرية التي قادها الجياع والمحرومين. وبدأت تلمع أعلام الفكر والنهضة مونسيكيو وروسو وفولتير التي حاولت تأسيس وصياغة القوانين والشرائع السياسية للنظام السياسي مستقاة من أهداف الثورة ووعي الجماهير بقداسة العقل الإنساني وقدرته على الخلق والتغيير فلا سلطة أعلى من سلطة العقل الذي يبحث ويصنع ويحكم وهو إمام المفكرين والفلاسفة والمنظرين. وشكّل البناء العقلاني المؤمن بقوة العلم اللبنة الأساسية التي نمت وترعرعت فيها العلمانية واستولت على الدولة في النهاية.

وبالطبع كانت مبادئ مونتسكيو وروسو في تقسيم السلطات والمليكات والدستور والحديث عن سلطة العقل الإنساني الذي جعله قرينا وموضوعا للعالم الذي نحيا به، لأن القوانين الوضعية تشتق من محتواه وتنظم الطبيعة البشرية. كذلك إنه الأداة التي تقضي على الإنسان في استبداده "إن الطبيعة البشرية تثور على الحكومة المستبدة بلا انقطاع، غير أن معظم الأمم خاضعة لها على الرغم من حب الناس للحرية وحقدهم على الطغيان، وإن إقامة حكومة معتدلة تقتضي ترتيب السلطات وتنظيمها وتعديلها وجعلها تسير وهذا يعد من بدائع الاشتراع"[13]. والمفهوم الديمقراطي الذي يصوغه روسو في أحقية الشعب وإرادته التامة يضعه أمام خيار المسؤولية في الأهداف والمصالح العامة لا الخاصة التي تستحوذها النخبة واختيارات الحاكم وفقا للحالة الطبيعية والفطرة القويمة والسوية للإنسان" إن الشعب الذي لا يسيء استعمال الحكم أبدا لا يسيء كذلك استعمال الاستقلال والشعب الذي دائما يحكم حكما صالحا لا يكون بحاجة إلى أن يحكم".[14]

---

(8) الثورات الناعمة، علي حرب، الدار العربية للعلوم، 2011، بيروت، ص36

(9) في مديح الثورة، خالد الحروب، دار الساقي، ص19

(10) العربي إلى أين، محمد دده، ص46

(11) الفوضى الخلاقة، رمزي الميناوي، دار الكتاب العربي، 2012، القاهرة، ط1، ص13

(12) في مديح الثورة خالد الحروب، ص19

(13) روح الشرائع، مونسكيو، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص98

(14) العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، ترجمة: ذوقان قرقوظ، دار القلم ، بيروت، ص108

ثورة الشباب:

تناولت معظم المراجع الحديثة هذه الخاصية باعتبارها جزءا ملتحما بالبناء الثوري، فإن جيل الشباب الثوري المتحضر هو الذي حمل راية الثورة وحشد الجماهير في الميادين العامة وتحلق حولهم الآلاف فكان "الكلام أول ما يفتك الثوار ممن كانت لهم سلطة ملكيته، يرفعون شعارات تزاح فيها المعاني إلى مقاصدهم في "الشعب يريد إسقاط النظام"، إنه "حكم العامة الذي يشارك في تقرير المصير وفي صنع القرار السياسي ويحول الحرية إلى موجبة وممارسة". نزلوا إلى الشوارع والميادين خلاصا من البطالة التي سحقت إنسانيتهم وقيم الفساد والرشوة يطلبون الخبز والحرية والعدل إنهم الشريحة الأوسع والأكثر واقعية، وليس حكما أرسطيا للنخبة ولا لانحياز حزب أو اتجاه أو حركة فكرية قومية كانت أو اشتراكية أو إسلامية، ولا تحمل في عقلها أي توجه أيديولوجي سوى الحرية والمساواة للجميع. إن هذه الغاية التي خرجت له الثورات أسقطت الأنظمة النخبوية الزائفة وفئة المثقف الإنتلجنسي الذي احتكر بمنطقة المفهوم الثوري وعجز عن تغيره، لأنه مفهوم نخبوي خاص يعيش به في أبراج عاجية تفصله عن الوعي الجمعي العام، فبعد أن كانت فكرة الوحدة أحادية تنحاز لطبقة المنظرين والمفكرين أصبحت فكرة جمعية نلمسها واقعا. "إن الحراك الشبابي الذي أسقط النظام في كل من تونس ومصر وغيرها نجح في دفع قطاعات شعبية واسعة للالتحام ضد الطبقة الحاكمة بحيث جمع بين الغاضبين الذين عبروا عن سخطهم وهؤلاء الشباب الذين ينشدون الانخراط في دائرة الإنتاج علاوة على البرجوازيين الذين ظلوا يشتكون من تهميشهم في عجلة الاقتصاد الوطني"[(15)]. فيما رأى البعض أن هذه الثورات أدحضت "الاتهامات الإحباطية للشباب بأنه جيل فاشل غير مبال ولا يهتم بالشأن العام. إن الشرائح الشبابية تمتلك وعيا عميقا ذلك إنها مستعدة للتضحية القصوى في سبيل تحسين ظروفها ومواجهة ما تراه ظلما وغياب العدالة"[(16)].

الثورة الرقمية:

شكّلت عولمة الاتصالات والانفتاح الرقمي وهيمنة الصورة البصرية في الانترنت والتلفاز للقرن الواحد والعشرين نقلا عبوريا بين الدول والقارات وتحولا جذريا في التعامل مع معطيات الواقع الثوري، استدعى عملية تغيير وقلب للأنظمة السياسية بفجائية صادمة للشعوب ألغت هذه التحولات الأطر التقليدية لمفهوم الثورة، فخلقت له فضاء الكترونيا عابرا للدول والقارات ينقل الخبر والشعارات ويوحد كلمات الثوار في لحظات معدودة في ساحات وميادين التغيير، أثبتت قوتها وحضورها بعد اجتياحها الأنظمة الاستخباراتية والأمنية للدولة. إن تبادل المعلومات في المظاهرات كان بمثابة لقاء مفتوح بين تجمعات حرة ممنوعة سابقا من التجمع في الساحة العمومية، كما ساهمت في تكيف المتظاهرين الشباب مع المستجدات الميدانية وإعداد استراتيجيات مضادة لإفراغ تحركات الأمن وإرباكها والالتفاف عليها"[(17)]. في المقابل نجد بعض المنظرين قرأ هذه الحالة على أنها تضليل مقصود كانت الحقيقة أول ضحية لهذه الثورات وساهم في "خلق كل أشكال الالتباسات التي تضيع الدقة في المعلومة والوضوح في التعليق"[(18)]، جاءت لتخدم أطروحة الفوضى الخلاقة وصياغته أنتجتها العقلية الأمريكية. وبرزت فكرة تسيس الإعلام لخدمة المصالح الثورية لعدد من الاتجاهات، فبدلا من أن يجمع الإعلام كلمة الثورة أصبح العامل الأهم في تضليل المعلومة وتشتتها ووقعت الثورة بين أيادي خفية كان الإعلام المرئي والإلكتروني أبرزها.

---

(15) وثائق ويكلكس وثورات الربيع العربي ، ص217

(16) في مديح الثور، خالد الحروب، ص43

(17) وثائق ويكلكس وثورات الربيع العربي، حسن مصدق، ص216

(18) الربيع العربي إلى أين، ص، 15

فجائية الثورات وسرعتها:

تباينت معظم آراء ووجهات نظر المحللين والمنظرين السياسيين في جدلية توقيت الثورات وفجائيتها التي صدمت الشارع العربي كاملا وطرحت سؤالا جدليا عما إذا كانت هذه الثورات مفاجئة تشبه تلك حالة ثورة الجياع في فرنسا عام التي نقلت ربيع الشعوب إلى أوروبا برمتها بعد أن بلغ السيل الزبى، أو أنها ثورات تراكمية عرفتها البشرية ضمن الحركة الدائرية الطبيعية لسيسولوجيا المجتمع والنظام الذي يعتمد على مبدأ البناء والهدم السياسي والحضاري، وقد يكون متعلقا ومتداخلا مع الحرب "فتنتقل تدريجيا للثورة إلى حد يشبه الثورة الأمريكية المسبوقة بحرب التحرير[19]، أو "بعملية انقلاب عسكري تنتهي إلى مفهوم الثورة أو كونها ثورات عشوائية ذات حركة اضطرابية هدفت إلى إشاعة الفوضى المدمرة والهدامة فقط، وهي نقيضة للنظام ونقيضة للعمل التغييري المنظم. يذهب الدكتور عزمي بشاره إلى "أن الثورات الحديثة ليست في التغيرات المتتالية في الحكم بموجب دورة متكررة ليؤكد على فجائية مفردة الثورة، لاستخدام الثورة يتضمن دائما قفزة لا تدرجا وقفزة نوعية تقطع ما سبقها فالتراكم الكمي يؤدي إلى تغيير نوعي عبر طفرة هذه الطفرة هي موازية للثورة في المجتمع"[20]. ويرى الدكتور حتاملة أن الثورة ليست "حدثا عشوائيا لأنها لا تولد في لحظة تنفيذها أو في أثناء محاولة التنفيذ، وإنما تكون رابضة في طبقات الوعي الجمعي المكابد إلى أن تطفو فوق السطح وتنشط حسب ظروف ومواقيت بعينها"[21]. ويستعمل عصام نعمان المفهوم الميكافيللي في حديثة عن نظرية "الفوضى الخلاقة والتدمير الخلاق" الذي اعتبر من أبرز النظريات السياسية الحديثة الملتصقة بثورات العرب حيث يؤدي إلى خلق النظام الجديد أو المخططات والمطامع الجديدة التي تقود في النهاية إلى الفوضى العارمة المدمرة، على حد قول جوزيف شومبير في كتابه الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية "إن المنافسة الهدامة هي أيضا تدمير هدّام ساهم في خلق ثورة داخل البنية الاقتصادية عبر التقويض المستمر للعناصر الشائخة والخلق المستمر للعناصر الجديدة "ولئن كانت الفوضى الخلاقة تتأسس نظريا على ثنائية التفكيك والتركيب، فذلك يعني أن الفكر الاستراتيجي الأمريكي بصيغته الراهنة لم يعد لديه اليقين إلا بعالم تكون الفوضى فيه سبيلا لإعادة تشكيله وفق مهمة أمريكا في بناء العالم الجديد"[22]. كان شارنسكي أهم من صاغ وقود دعائم مفهوم الفوضى الخلّاقة في الشرق الأوسط.

نتائج ثورية متباينة:

تذكر حنة أرندت أن كلمة الشعب هي الكلمة المفتاح لفهم الثورة قد قرره الذين شهدوا المآسي. وإذن فالحديث هنا عن الشعب يأخذنا للحديث عن لعنته أيضا وهو الفقر الذي دفع "الجمهور والحشد للخروج إلى الحيز العام من المنزوين في منازل الحرمان"[23]، كما حدث في الثورة الفرنسية وللحديث عن أناس آخرين لديها القدرة على المعاناة مع الطبقة الضخمة من الفقراء التي تقود الثورة لأنهم وقودها. وهم برأي أرسطو أيضا وقود الطغاة والديكتاتورين "الذين يصلون إلى الحكم لتعبئة وحشد الفقراء ضد الأغنياء وفي الغالب يخاطب الطغيان شعور الناس بالمساواة ولكن المساواة في هذه الحالة كمحكومين وليس كحكام للوصول إلى مصلحتهم، فالمصلحة كما تبدو

(19) في الثورة، حنة أرندت، ص21

(20) في الثورة والقابلة للثورة، عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث، 2012، الدوحة ، ص38

(21) محمد حتاملة، ص64

(22) الفوضى الخلاقة، رمزي الميناوي، ص34

(23) في الثورة والقابلية للثورة، ص53

لأرسطو هي "مفيدة لشخص أو لمجموعة من الناس وهي الحاكم الأعلى في الأمور السياسية"[24]. وهنا في كلتا الحالتين سيكون الشعب وحده وقود الثورات.

ولا خلاف على أن حشود الفقراء والمحرومين العرب لا سيما الوعي الجمعي من الشباب هم الذين خرجوا وثاروا لنشدان سعادة الشعوب وحريتها في ميادين التغيير، تحت المسميات الناعمة والسلمية البعيدة عن الدموية والعنف كالثورة القرنفلية والثورة البيضاء وثورة الياسمين، لكن جرت رياح التغيير بما لا تشتهي السفن فالأوضاع في الدول العربية كانت تتشابه في مبادئها الثورية المعلنة الحرية والديمقراطية عبر شعار الإرادة وتغيير الحاضر "الشعب يريد إسقاط النظام"، فالثورة فعل سيسيولوجي بحت بعيد كل البعد عن مفهوم الانقلاب المقصور على نخب عسكرية في الدولة ولكنها تفاوتت في نتائجها المنشودة بين الاستجابة الثورية السريعة وبين الدموية والقتل وبين الانتهاء إلى الاقتتال والمحاصصة الطائفية.

لقد كانت كل حالة من الحالات السياسية طبيعة مختلفة عن غيرها وهذا عائد إلى التركيبة البنائية لكل مجتمع، وهو ما هيأ نجاح الثورة أو سقوطها تحت الحكم الطائفي أو الانتهاء بها إلى حرب أهلية طاحنة لقد استطاع التونسيون أن يقدموا أنموذجا ثوريا صادما للعالم العربي حين تجمعوا وثاروا ليقولوا كلمتهم الأخيرة والنهائية، وبعد ثبات نجاح ثورة الياسمين. انتقل النموذج إلى مصر واستطاع أيضا أن يقلب الموازيين السياسية حين احتضن الجيش كلمات الثوار ومنذ ما قبل الثورة المصرية "كان رهان معارضي فكرة توريث منصب رئاسة الجمهورية إلى نجل مبارك أن الجيش لن يقبل به وتجلى ذلك في عصيان الجيش في قضية قتل المتظاهرين"[25]. أما في ليبيا فقد كانت الحالة الأسوأ أمامنا ذلك أن ليبيا كانت تقبع تحت هيمنة شخصية سياسية هلامية غريبة الأطوار هائمة في مبادئ الكتاب الأخضر والنظرية العالمية الثالثة، وأنظمة التخلف والرجعية "أرجعت البلد إلى عصر ما قبل الثورة الصناعية"[26] رغم أنها من أكبر مصدري النفط إلى العالم صاحبت بداية الثورة في ليبيا العنف والتهديد والدموية وانتهت إلى إجهاض الثورة بسبب تركيبة المجتمع المخلخلة والمضطربة وافتقاد الوعي الجمعي في الانتقال لمرحلة البناء بعد الهدم.

ولقد أحسن المفكر عزمي بشارة في تشخيص الحالة الليبية بقوله "إن الشعب الليبي يريد استعادة النظام لا إسقاطه لأنه لم يعد هناك نظام بعد مجيء القذافي. فنحن إزاء حكم لا بالجمهوري ولا الملكي ولا الثوري ولا الرجعي ولا البدائي ولا القبلي"[27].

وفي اليمن شكّل النظام القبلي والهيمنة القبلية البذرة الأساسية لإجهاض الثورة أدت إلى نشوب صراعات واحتقانات داخلية أدخلت اليمن في حرب أهلية ومن ثم إقليمية، وعن سوريا فكان النزاع هو الأشد فتكا على السوريين أنفسهم بقتل وتشريد الملايين في دول الجوار، فيبدو المشهد السوري بأبعاد أوسع من سيطرة النظام وتمسكه بالحكم وبطشه وبين عناد المعارضة وتفككها لتصبح ساحة للإرهاب والتطرف وبين وقوف بعض الدول إلى جانب النظام باعتبار أن "صمود الأسد واستمراره غيّر قواعد اللعبة السياسية الأمريكية في الشرق الأوسط الجديد"، وأن سقوط النظام "سيقود سوريا إلى المجهول وإلى زلزال من شأنه أن يحرق المنطقة بأسرها"[28] كما صرح الأسد في التلغراف البريطانية. وإذن فنحن أمام نتائج ثورية متعددة يعزو نجاح بعضها وفشل الآخر إلى تركيب المجتمع الخاص

(24) في الثورة، حنة أرندت، ص29

(25) في الثورة والقابلية للثورة، ص66

(26)الثورات الناعمة، علي حرب، 82

(27) الثورات الناعمة، ص82

(28) الثورات العربية بين المطامع والمطامح، عصام نعمان، ص22

لكل دولة لكن تبقى مسألة الافتقار للنظرية السياسية العربية والوعي الجمعي للممارسة الثورية ووضوح توجهها وهدفها تدور في صلب النتائج أضف إلى ذلك تدهور المرحلة الانتقالية لكل دولة حيث بقيت السلطة الجديدة الحاكمة بعد الثورة تدور في نفس فلك السلطة التي سبقتها و" لم تكن حكومات من صنعوا الثورة بل كانت حكومات مزيج من قوى المعارضة والسلطة في النظام السابق"[29] وتتعداها إلى الأسوأ كما نراه في المشهد المصري اليوم؛ فجيل الشباب الذي نزل إلى الميادين وقدّم نفسه شهيدا للثورة كان محركا استفادت منها الأحزاب والمعارضة ولعبت بها الأنظمة السابقة لتحريكها في اتجاه محدد بواسطة الصورة الرقمية في بداية المرحلة ثم أجهضتها وعزلتها تاليا.

إن تتداخل السياسة مع النسق والتكوين الاجتماعي أمر لا مناص منه نظرا لاتحاد العلاقة بينهما وتبادل المصالح واستمرار ديناميكية المجتمع وتفاعله للوصول إلى صنع القرار السياسي الذي يمثله رأس هذا الهرم الاجتماعي، فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم مستدامة دائرية لا زاويا تقف عندها فالتركيب السياسي هو نموذج مطابق للتركيب الاجتماعي ذاته لأن أي قرار سياسي سيصدر هو تحول دائري مجتمعي وليس تحولا موازيا يمكن أن يسبق أحدهما الآخر، لذا يمكن أن تعتبر السياسة نسقا اجتماعيا " إنها عملية معقدة تقوم على تصورات نظرية أكثر شمولا واتساعا من الفهم التقليدي والعام لها إنها لا تهتم بقضية بعينها بل تتناول كل مكونات النسق السياسي مثل أسلوب الحكم وصنع القرار السياسي وكيفية تنفيذه، وهي تبدو على مستوى الممارسة عمليا أكثر تعقيدا لأن حياة الفرد داخل النسق الاجتماعي أصبحت حياة مسيسة"[30].

انطلاقا من النظريات السسيولوجية التي قامت على مبدأ العلاقة بين الأدب أو الفن والمجتمع حظيت نظرية الانعكاس الأدبي بخصوصية بالغة لما لها من ارتباط وشيج بوظيفة الأدب التي وضعته في دائرة الالتزام والواقعية الاجتماعية والانعكاس الواقعي الصادق، وهو لا يعني التزاما يحدد ويقلص مساحة الحرية في الفن والأدب أو للفنان أو الكاتب، ذلك أننا لا يمكن أن نلغي الدور الذاتي والشعوري للكاتب ونضعه في إطار تسجيل الأبعاد الاجتماعية الخارجية من حوله، وإذن فهي عملية تبادلية بين المحتوى الذاتي والشعوري للكاتب في وعيه والمحيط الخارجي الذي يتموضع فيه الكاتب الذي يحقق التجربة الإنسانية ويصبغه بها"، فعملية الإبداع فعالية اجتماعية نتيجة جهد فردي متميز لكن حصيلته الفكرية والشعورية مستمدة من علاقة الأديب بالنسق المجتمعي الذي يعيش فيه"[31].

فالفن قديم قدم الإنسان ذاته، وهذا يعني أن علاقة تفسير احتياج الإنسان للفن علاقة وجودية مستمرة بصيرورتها الدائمة لارتباطها بالحركة والدلالة الجماعية التي لا ينكرها أحد، بيد أن الاتجاهات التي سعت لتفسير غائية الأدب وضعته في قوالب ونظريات فكرية مستقاة من المادة الفلسفية التي قامت عليها التفاسير، وتبنت طرحها التي هي في محتواها الحقيقي تعبير عن فكرة الاندماج السسيولوجي بين الإنسان والواقع تقع في أدوات محددة سواء أكانت بالمحاكاة أو الرومانسية أو الواقعية والرمزية، إذن نحن أمام ثنائية الكاتب والمجتمع. والعلاقة بينهما تدخل حيز الحرية التي تجعل الفن تعبير عن ذات الكاتب أو معاناته الداخلية وتفصله عن مجتمعه وهذا أمر لا يتم نظرا للطبيعة المجتمعية التي تقوم عليها الفطرة الإنسانية لا الطبيعة الانعزالية أو تربطه بواقعه الخارجي ربطا قد يجعله يرفض أو يقبل أو ينتقد أو يسخر بعيدا عن التسجيلية الواقعية والتاريخية، وفي المحصلة الأخيرة هو مضطر للخروج بموقف ورؤية محددة غير أحادية الجانب.

---

(29) ثورات وخيبات، عبد الإله بلقزيز، منتدى المعارف2012، بيروت، ص319

(30) الرواية السياسية، طه وادي، دار النشر للجامعات المصرية، 1996، ص 38

(31) في نظرية الأدب، شكري ماضي، دار المنتخب العربي، 1993، بيروت، ط1، ص88

لقد حاول أرنست فيشر رصد هذه العلاقة بدقة متناهية حين تحدث عن ضرورة الفن في مجتمع إنساني يسعى فيه الأنسان للبحث عن الحالة المتوازنة لإشباع رغبات الفرد الذاتية مع عالمه الخارجي ومعاناته فيه وهو ما يحول إلى تجربة إنسانية خالدة، وهنا نستطيع أن نتحدث عن فكرة خلود الأدب واستمراريته فيقول "إن كل فن هو وليد عصره وهو يمثل الإنسانية بقدر ما يتلاءم مع الأفكار السائدة في وضع تاريخي محدد ومع حاجاته وآماله لكن الفن يمضي إلى أبعد من هذا المدى فهو يجعل اللحظة التاريخية المحددة لحظة من لحظات الإنسانية تفتح الأمل نحو تطور متصل وليس مجرد طفرات وتناقضات"[(32)]. وهو يتحدث عن طبيعة الفن الذي يقوم على مادة السحر أي ماهيته وصورته فهو مرتبط بعملية التغيير وإعادة بناء الواقع وتحويله في طبقات المجتمع "إن الفن لازم للإنسان حتى يفهم العالم ويغيره وهو لازم بسبب هذا السحر الكامن فيه"[(33)].

ويأتي رأي الروائي عبد الرحمن منيف؛ ليؤيد هذا الطرح النظري حين تحدّث عن الدور السسيولوجي للرواية في خدمة الشريحة الأعم في المجتمع فيقول "ستكون الروائية تاريخ الذين لا تاريخ لهم؛ تاريخ الفقراء والمسحوقين والذين يحلمون بعالم أفضل وسوف تقول كيف عاشوا وكيف ماتوا وهم يحلمون"[(34)].

المشهد المصري في رواية إنه الدم – نوال السعداوي-

الثورة والشباب:

تعتبر رواية إنه الدم من أهم الأعمال الروائية التي رصدت مزية الثورة الشبابية والشعبوية في مصر، لقد جسّدت السعداوي ثورة المرأة المصرية والشباب المصري الملتف حول الحرية والعدالة والمساواة في ميدان التحرير بكل أطيافه وشرائحه من المثقفين والثّوار والرجال والنساء والفقراء والكادحين الذين يشاركون حربهم للقضاء على الفساد ونيل الحرية مرددين خطاب الثورة المختزل بمفردة السقوط، كما هي فرصة من أجل الثأر والانتقام من الفاسدين والبلطجية وأتباع النظام.

"الشباب والشابات من مختلف المهن والطبقات والأطفال من مختلف الأعمار وكبار السن من الرجال والنساء، ومنهم الكاتبة بدرية البحراوي تركت بيتها مثل الآخرين وأقامت معهم في الخيمة، تهتف معهم: يسقط النظام".[(35)]

كما أصبحت خيام ميدان التحرير ملاذا ومسكنا للمرأة الثائرة التي تطالب بحقوقها فتجتمع الثورة الشعبية والوعي الشعبي في ثورة المرأة والوعي الأنثوي ويصبح معادلا موضوعيا للثأر والانتقام وانتهاز فرصة سعدية وهنادي وللانتقام من شاكر الرجل السلطوي الذي يمارس قمعه على المرأة ويستغل ضعفها وعوزها أو يرفضها لكونها امرأة مثقفة ولها منصبها الأعلى منه كما هي في شخصية فؤاده. ومن هذا المحور النسوي تنطلق مركزية الثورة عند نوال السعداوي لأن جوهر خطاب ثورة يناير هو خطاب النسوية وثورة المرأة بكافة شرائحها لنيل حقوقها أو للانتقام من الرجل والسلطة.

" تكورت أمها سعدية تحت الخيمة فوق الأسفلت، لم تعد تسمع الهتافات المطالبة بالقصاص من القتلة والمجرمين، ويسقط النظام، لفت ذراعيها وساقها للتقي الرجفة التي شملت جسدها تجتاحها رغبة ملتهبة في الانتقام من المجرمين جميعا وعلى رأسهم هذا الرجل الذي قضى على حلمها وحلم ابنتها"[(36)].

---

(32) ضرورة الفن، أرنست فيشر، ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة، 1971، ص15

(33) المصدر نفسه، ص17

(34) الرواية السياسية، طه وادي، ص105

(35) إنه الدم، ص219

لم تكن التحديات التي تواجه الشباب المصري تقتصر على سقوط نظام مبارك بل إن من واجبه الحفاظ على معنى هذه الثورة، ولذلك فالروائية ترفض حكم الجيش والانقلاب على الإخوان رغم الموقف الأيديولوجي من الكاتبة الذي يرفض الاعتراف كذلك بشرعية حكم مرسي بعد مبارك فيقف الشباب والجميع في ثورة جديدة تندد بالانقلاب وتعود لرفع مفردة السقوط الثورية.

"في طريقها إلى بيت الاستاذة رأت سعدية التظاهرات في الشوارع شباب من الطلبة والعمال والطالبات والعاملات وربات بيوت وموظفين وفلاحين ملايين من الناس معظمهم شباب يهتفون:

يسقط يسقط حكم الجيش مش كفاية لبسنا الخيش"[37].

واقعية الصورة الثورية:

وتبدو واقعية الثورة المصرية في رواية إنه الدم تصب في الكم الهائل من الانتقادات للفساد المستشري في المجتمع المصري عبّرت عن ثورته الدموية حين دفعت كل شخصيات الروائية دما جمعيا لهذه الثورة. تختزل الروائية صفحات مكثفة وممتدة لسبر أغوار أورام المجتمع المصري في حيز الصحافة والحرية الإعلامية وحيز المرأة المثقفة والمومس والبيئة الأسرية والعشوائيات المكتنزة بالفقراء والمحرومين في قاع المدن.

"قادت فؤاده سيارتها في الحواري المتفرعة من الشارع الرئيسي أكوام القمامة تسد مدخل المباني والعمارات أطفال الشوارع ينشونها مع القطة والكلاب الشاردة"[38]

وتقدم السعداوي صورة واقعية لحقيقة ثورة يناير التي كان النظام السياسي يحاول أن يسيء إلى مفهومها بصورة مناقضة لهدفها وأن يعتبر كل من يشارك فيها من فئة البلطجية وتجار المخدرات والمومسات الذين يقيمون في السجون دوما من أجل القضاء عليها، لكنها كانت ثورة حقيقية قادتها المرأة العاملة والمتعلمة ودفعت ثمنها بدمها واعتقالات السجون التي تؤوي الثائرات وليس المومسات.

"لا يدخل السجن من النساء المتعلمات غير الحالمات بالجنة إلا القليل النادر الجريمة غالبا تندرج تحت بند السياسة والثورة لقلب نظام الحكم كانت هي أيام الثورة من أجل الحرية والعدالة والكرامة"[39].

لقد اختارت نوال السعداوي ثورة يناير لتكون ثورة على فساد تراكم لسنوات وعقود. إنه الاستبداد والظلم والجهل الذي يطفو على السطح في النهاية. واختارت السعداوي الحديث عن الثورة المصرية بالاعتماد على مبدأ استعراض الواقع العيني وتشريحه وتقديم أدق الجزئيات والحيثيات في محتواه. إن هذا الاستعراض غير النظامي لتسلسل الأحداث والزمن الروائي جاء نتيجة موازية لفوضى الواقع والحياة التي تنسحب فيها مفهوم النظام والتراتب في الزمن أو الحدث للإنسان المصري اليوم والتكوين الاجتماعي للأفراد، فيبدو المبدأ الثوري الذي تحمله شخصيات الروائية وطبقات المجتمع الكاملة هو الخيط المستمر والمتواصل للنضال والمقاومة والكفاح ضد الكذب والتملق والنفاق السياسي والاجتماعي في سبيل حريتها وثورتها الجذرية الكاملة. ورغم الخلخلة والقطع الزماني والمكاني والحدثي التام في البنية الروائية الذي قد يكون أقرب منطقيا للقارئ لفهم وإدراك أسباب الثورة بعد استعراض زمني طويل للأحوال والأوضاع والنماذج المظلومة والمقهورة والجائعة من شرائح المجتمع المصري ليأتي مشهد فعل الثورة وحدثه في نهاية الروائية متطابقا مع واقعية التجربة المصرية الحقيقية ومعادلا موضوعيا لها.

---

(36) المصدر نفسه، ص218

(37) إنه الدم، ص108

(38) المصدر نفسه، ص57

(39) إنه الدم، ص18

"هجموا على ميدان التحرير داسوا الناس بالحوافر والعجلات أطلقوا النيران والغازات ارتفع الغبار في السماء مع الدخان وكرات النار زجاجة الماء تطير من يدها هي نفسها تطير مع الزجاجة وتسقط على الأرض فبدت لها دماء حمراء" [40].

إن الدلالة السسيولوجية التي يحملها الدم لعنوان الروائية هي دلالة الخلاص الإنساني من الاستبداد والظلم والتوق للحرية الذي لا يتم أو يتحقق بدون الافتداء الجمعي والتضحية الاجتماعية؛ فهي الثمرة المرة التي يجنيها الإنسان بعد صراع دموي طويل المدى يضحي فيه الأفراد بدمهم في ميدان التحرير، وهي وقود لإشعال التغيير وقلب الثوابت والأوضاع والأنظمة السياسية "هو دم الخادمة العذراء فوق الملاءة الحريرية لسيدها البيه والدم في عيادة الطبيب أثناء عملية الإجهاض ودم الشغالة القاتلة لزوجها ودم الكاتبة الثائرة ضدّ النظام تنزف كلها في آن واحد"[41] وهو دم جلال أسعد الذي مات تحت التعذيب والقتل.

"أنا نضجت من خلال الألم والدم، الثورة نضجت من خلال دم شبابها وشاباتها لازم ندفع ثمن الحرية بالدم"[42]

سعت السعداوي لنقل التجربة الثورية في مصر من خلال إبراز وعرض الخلل الدفين ولمس الجراح الواقعية لطبية تدرك المعنى الحقيقي لمدلولات كلمة الألم التي هي مفتاح الروائية في مفتتحها وسبب ثورتها في مختتمها، وهي ليست واقعية تسجيلية بقدر ما كانت تهدف للتعبير عن مواقف الرفض والانتقاد والسخرية، ثم حدا ذلك الوصول للمرحلة الانتقالية وهو فعل الثورة الذي يعني الهدم الكلي لما سبق استعدادا لمرحلة جديدة البناء لم يكن لها حضور في الروائية وتركت أملها للمستقبل. وإذن اكتفت الروائية بالتركيز على مبدأ التفتيت والهدم الكامل للبناء المجتمعي المتفسخ بحدث الثورة العظيم وهو الذي يحمل في مضمونه رؤية جديدة وبصيص أمل ينبئ لمرحلة البناء التي لا تقل أهمية عن سابقتها التي تركتها بين دفتي القارئ.

"نحن نحق أهداف الثورة بأنفسنا، ننتزعها بأيدينا، الحرية والعدالة والكرامة تؤخذ ولا تعطى"[43]

ولم تخلو الروائية من الحضور الأنثوي الطاغي للمرأة ونماذجها المتعددة، فالروائية في مضمونها تقوم على المستوى الثوري الحقيقي للمرأة وقضاياها لأنها المحرك والفاعل الأساسي للثورة. إنها ثورة المرأة المصرية على الفقر الذي اكتسح أزقتها وعشوائيتها في شخصية "سعدية" وإنها ثورة المرأة على المجتمع الذكوري جسدتها شخصية "كوكب" و"فؤادة" وعلى الرجل الأناني السلطوي الذي لا يرى فيها غير مرآة الجسد البيولوجي ولذته في شخصية "حميدة" وثورة المرأة المثقفة على واقع ينظر لها إنها مسترجلة قد جسدتها شخصية الاستاذة "فؤاده".

منذ الطفولة أشم رائحة الذكر في عين الرجل نظرة الشبق في عيونهم في البيوت والشوارع والحوانيت.[44]

ترصد السعداوي مشاهد واقعية ملتحمة بواقع الثورة المصرية وأدق تفصيلات في ميدان التحرير، فتعرض شرائح المجتمع المصري تحت الخيام وفي الشوارع والأزقة المكتظة بآلاف الثوار والمرتزقة والعملاء والقتلة. إنهم مرآة صادقة تعكس الصورة الصادقة للمجتمع والقيم والانحرافات والتناقضات الداخلية واقع التحرش الجنسي واقع القتلة والمرتزقة والمأجورين الذين سفكوا دم جلال أسعد واقع اللصوص الذين استباحوا أعضاء الشهداء كل هذا

(40) نه الدم، نوال السعداوي شركة المطبوعات للنشر، 2014، ط1، ص9

(41)الكاتبة منى حلمي، تاريخ 1 نيسان 2015 ، عدد:25693 جريدة النهار

(42) إنه الدم، ص274

(43) المصر نفسه، ص264

(44) إنه الدم، ص85

أثناء فعل الثورة ذاتها. ويبدو موقف نوال السعداوي مؤيدا للثورة ضدّ مبارك ومناوئاً للإسلام السياسي والمجلس العسكري الذي لم تخصص له طرحا مباشرا في الروائية في حين تحدّثت عنه صراحا في كتابها[45].

"تقدم أربعة رجال نحوها ينزعون عنها ثيابها تمتد أياديهم بين نهدها وساقيها... كان الممرض يبيع الجثة لطلبة كليات الطب بالقطعة....إن المجني عليه توفي نتيجة تعذيبه من قبل من البوليس داخل المعسكر الأحمر"[46].

الصورة الإعلامية:

كما ركزت الكاتبة على واقع الصورة الإعلامية الورقية والرقمية التي عكست مستويين هامين في الثورة انطلاقا من أبعاد العلاقة بين السلطة والشعب سيكون الإعلام جزءا ضروريا لكلا الطرفين:

المستوى الأول: واقع الإعلام المتحيز والمنافق للنظام وأتباعه الذي يقوده مجموعة من الصحفيين والمحررين الذين يساندون النظام الفاسد ويمارسون القمع والقتل على المثقفين والكتّاب، وتظهر الروائية ازدواجية الصحافة ونفاقها في تناول الأخبار الكاذبة والمضللة وفي التعتيم الإعلامي حول قتل الأبرياء وضحايا الثورة الذين تعتبرهم الحكومة قتلوا بحوادث مختلفة، ولم يتم ذبحهم على أيدي النظام، ففي ظل هذه الأحداث العاصفة بالبلد فُقد الكثير من الصحفيين ورؤساء التحرير على يد البلطجية والمتآمرين والجواسيس من النظام.

"اعتُقِل سكرتير التحرير منذ يومين، التقطت الأذن السحرية حديثه مع زوجته في غرفة النوم، قبض عليهما البوليس في الصباح بتهمة الخيانة الوطنية".[47]

أما المستوى الثاني فقد تمثّل في جموع الناس التي خرجت للتظاهر ضد النظام والأوضاع السياسية بكل أشكال الاحتجاج وعبر الإعلام الرقمي الذي كان صوت الضعفاء والكادحين وصوت النخبة من الصحفيين الأحرار وصوت المصريين ممن انضموا للثورة بعد أن تغيرت مواقفهم ويظهر ذلك في الحوار المباشر بين شاكر وطبيبه النفسي.

أنت شاركت في الثورة.. إزاي يا شاكر؟

في كل التظاهرات والمناقشات والحوارات والفيس بوك والتويتر.[48]

وكما قدمت الروائية صورة لضحايا الثورة الذين قدموا أنفسهم من أجل نجاحها وحملوا على عاتقهم الكتابة باسم الحرية والعدالة للجميع وتجسّد ذلك في شخصية جلال أسعد كأحد الثوار وأبطال الثورة الذي قدّم دمه في سبيل حرية الإعلام والتعبير، ولأن هذا الجزء كان محط اهتمام النظام وأعوانه من أجل السيطرة على الحراك الشعبي كان لا بدّ من عمل تصفيات جسدية للنشطاء الإعلام القديم والجديد على حد سواء.

سقط جلال على الأرض ينزف دما، كان جلال مسؤول الصفحة الالكترونية التي توجه الشباب وتنظمها يكشف فيها المسكوت عنه ذو أسلوب بسيط مركز مباشر بالصورة والخريطة والفيلم يتصل بالآخرين ويتفاعل معهم بسرعة ومهارة"[49].

---

(45)راجع بتفصيل كتابها" الثورات العربية" شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 3013

(46)إنه الدم، ص، 11-13

(47) إنه الدم، ص182

(48) المصدر نفسه، ص258

(49) المصدر نفسه، ص267

نتائج ثورية:

جعلت نوال السعداوي من ثورة يناير ثورة لكل امرأة مصرية على الرجل الفاسد والسلطوي. وبالتالي إن سقوط النظام هو سقوط موازي لصورة هذا الرجل وهو يماثل نجاح الثورة ونجاح نسائها معا، حيث تختزل الروائية مشهد الحصار وتتأزم الأحداث السياسية والاجتماعية على شخصية المرأة منذ بدء الروائية وما تلبث أن تنتصر الثورة بدماء شبابها وتضحياتهم وتنتصر معها المرأة كذلك، لأنها باعتقاد السعداوي هي صانعة الانتصارات والثورات، كما يظهر ذلك في نهاية الروائية. كما يلاحظ استثمار السعداوي للعامية المصرية في الحوار بين الشخصيات أطفى بعدا أكثر واقعية وقربا للواقع الثوري وانعكاساته على القارئ وكأنها تنقل صورة حاضرة ومطابقة تماما في ذهن المتخيل عبر الواقعي الممكن.

فيه إيه بيحصل في البلد؟

ولا حاجة يا فخامة الرئيس.

أنا سامع أصوات؟

شوية نسوان بيضحكوا مع بعض.

كده خليهم يتسلوا.

إن القيم الثورية المختزلة في الروائية لمفهوم الثورة المصرية أحادية القطب تتمحور حول ثورة المرأة ضد الواقع بكل أطيافه، وهو يتداخل بصراعه مع مفهوم الثورة على الرجل تماما يسير بشكل فردي ثم يتطور ويتعانق مع الألم الجمعي الشامل الذي قاد لفعل الثورة الناجع الذي أكد هزيمة الظلم والاستبداد وحرّك كرسي العرش للنظام.

اهتزت أرجل كرسي العرش وهو جالس باسترخاء لم يعد شعر رأسه أسود أصبح لونه رماديا ونبت في وجهه لحية".[50]

لقد حرصت السعداوي على التركيز على فكرة التغيير الراديكالي الكامل والشامل في بنية المجتمع المصري وظهر ذلك في نهاية الروائية بتغيير المواقف الفكرية والأيديولوجية لأحد أبطال الروائية " شاكر" الذي بقيت شخصيته السلطوية الذكورية تهيمن على أحداث الروائية فشاكر يرفض أن يتساوى مع المرأة في العمل الصحفي وينظر لزوجته الكاتبة على أنها ندّ له في البيت والعمل كما يستبح جسد الطفلة هنادي، كما يمارس مهنة الكتابة بنفاق وتملق من أجل إرضاء رئيس التحرير.

وجاءت فجائية الروائية بتباين النتائج وقدرتها على المعالجة النقدية حيث استطاعت السعداوي رسم مواقف مغايرة ومتحولة لشخصياتها التي امتدت على مساحة واسعة منذ بداية السرد لوصف شخصية شاكر كرمز للسلطة السياسية الفاسدة والرجولة السيئة والمثقف الوصولي. غير أنها قدّمت لنا في نهاية الروائية تحولا هاما في رسم شخصية هذا البطل الإشكالي حيث بدا الالتفاف الوحدوي والشعبي لمفهوم الثورة يحدث تغيرا هاما في وعي الشخصية بمسؤولية الثورة فأثبتت نجاح الثورة وانتصار المرأة في الروائية حيث تحولت مفاهيم وأفكار؛ وأعلنت استسلامها وتأييدها لمبدأ ثورة الشارع والنساء، بل وامتد أثرها لتكون مؤثرة على شخصيات أخرى مثقفة مثل كوكب وهذا يتضمن جزء هام من الإصلاح ونجاح مبادئ الثورة.

"الاستاذة الكاتبة الصحفية كوكب الكميلي سحب أقوالها الأخيرة، وأكدت أن شهيد الثورة جلال أسعد مات بالتعذيب في معسكر الأمن وليس إثر حادث سيارة"[51].

(50) المصدر نفسه، ص279

(51) المصدر نفسه، 279

المشهد الليبي في رواية- فرسان الأحلام القتيلة-

تقوم رواية فرسان الأحلام القتيلة على معالجة أدبية مختلفة تماما عن رواية إنه الدم، حيث قّدم الكوني الثورة الليبية على طريقة مختلفة في الكتابة، فالروائي الأنا ينفرد بسرد الأحداث وتوزيعها دون أن نعثر على صوت آخر سواه وهو ما أضعف البناء الروائي له وجعله بطيئا في سرد الأحداث والدراما وألغى حضور الشخصيات الاخرى وجعل الروائية تقترب إلى حد كبير من انطباعات وتساؤلات ذاتية وفلسفية، أما الروائية فهي ليست استعراضا لأخطاء وجرائم القذافي فحسب، بل إنها تحدي وانتقاد وثورة المتخيل داخل ثورة الواقع. ويمكننا القول إن الكوني خلق عالما إبداعيا عالي القيمة من ناحية جمالية اللغة وخلق تجربة إنسانية شاملة تناقش فلسفة الحب والحرب والسلم والثورة والعلم والجهل ومحنة المثقفين ومحنة الكوني ذاتها، في زمن الجهل الليبي الذي اكتسح ليبيا على يد القذافي والبطالة وفساد التعليم وحالة الجهل واللامبالاة الذي أورثه نظام القذافي للناس من خلال تعاليم الكتاب الأخضر والنظرية العالمية الساحرة الذي هو بيت القصيد للاستبداد والعنصرية، وتقسيم المجتمع ونشر العداوة بين أفراد المجتمع وطمس التاريخ والهوية والوطن.

" التاريخ أيضا رجمته الأيقونة الخضراء بحجر، بل بألف حجر ويبدو أن هذا هو سر مناصبة الأيقونة العداء لكل ما مت صلة بحضرة القرطاس"[(52)].

تركز الروائية على عدد من المحاور لوصف الثورة الليبية وطبيعة النظام كان من أبرزها:

انتقادات المجتمع الليبي:

تتماثل الرؤى الفلسفية والأدبية في تحليل الظاهرة الاجتماعية وهذا يؤكد تجذر العلاقة بين الواقع العيني بما يحتويه من فكر وسياسية مع الفن. لقد حاول علي مبارك وضع خطابه التأسيسي للثورة انطلاقا من سؤال الاستبداد الذي يحكم الوعي العربي القياسي في عملية تحرير العقل وثورته من الاستبداد قبل اقتلاع جذوره من الواقع. وهذا سيؤول برأي مبارك إلى "تحرير الواقع الذي ينحل في النهاية إلى عقل، فهو ليس مجرد الممارسة التي تطفو على السطح بقدر ما يكمن تحتها من نظام المعنى وما يعنيه من أن الهوية هي جوهر العلاقة بين العقل والواقع".[(53)]

ومن هنا حرص الكوني على أن يقدّم ثورة ثقافية وعقلية على واقع الجهل الليبي في الروائية كما حرص على أن ينقل صورا وصفية لطبيعة النظام الاستبدادي وأطفت بعدا واقعيا لصورة الثورة ويومياتها، ففي هذا الجزء ركّز الروائي(غافر) على اظهار صورة الجهل الفكري القابع تحته الشعب الليبي منذ عقود وجعله يفقد مبادئ الحياة الكريمة، فسياسية تجهيل الشعب عبر وضع المناهج الدراسية العقيمة والبالية واستبدالها العلم بتعاليم الأيقونة الخضراء المقدسة وسياسية التضييق على المثقف أدت بالناس إلى انتشار الحقد وشيوع الكراهية والبطالة، وتفشي الخمول العقلي والجسدي واهمال قيم العقل وتحرير دفاتر التاريخ وخصوصا تاريخ الثورات. ومن هنا فإن الكوني يؤمن بأن الثورة ليست ثورة شعب يحمل السلاح ضد القناصة والأوباش، بل ثورة تحرير العقل والثقافة والكتابة وهي تمثل الثيمة المحورية التي تقوم عليها الروائية. ولذلك هو يقف ساخرا من شعبه على ذلك الجهل المتفشي فيه.

الثورة السنديانة. هل يعقل أن تكون سيرة "ذلك العجوز المتصابئ، بل والخبول تاريخا معاصرا جديرا بأن تتعلمه أجيال تجهل تاريخ أسلافها منذ ألوف السنين؟ بل وتجهل حتى تاريخها القريب المتمثّل في تجربة الاستقلال[(54)]."

(52) فرسان الأحلام القتيلة، إبراهيم الكوني، مجلة دبي للثقافة والنشر، 2012، ص22

(53) ثورات العرب، علي مبارك، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2012، ص75

(54) المصدر السابق، ص26

شعبوية الثورة:

شملت انتفاضة الشعب وحراك شبابها من مختلف الفئات وفي مختلف مدن ليبيا صورة هامة في نقل الثورة. وقد كان ذلك بمثابة حلم فرسان ليبيا جميعا الذي يشير إليه العنوان وعتبة النص معا، وهدف مشترك بينهم جمع شباب مدنها بدءا من شرارة الحرب في بنغازي الذي سطّره القدر لهم. إنه الحلم حلم الثورة الذي تحول واقعا يمتطيه فرسان وشباب الحرية فشكّل الحلم الجمعي نقطة الانطلاق نحو الحرية حرية الفرد والوطن التي ينتظرها منذ سنوات، وهو أمل الأجيال القادمة من الشباب لتحيا بالسلام والتنوير[55].

وكما حدث في مسيرة الشرارة (بنغازي) المتجه إلى ميدان المحاكم، حدث في مسيرة ذات الرمال التي لم تخرج إلا ثأرا لها: قدح القدر زنده فانبثقت الشرارة التي أطلقت الحريق. انطلقت الرصاصة من فوهة الكابوس لبنبثق النزيف! سال الدم وسقط أول شهيد فوجد القدر الحجّة ليقول كلمته.

تجلت صورة شعبوية الثورة الليبية في مكان محصورة وضيق هو بناية الضمان، ولذلك كانت رواية السعداوي أكثر شمولية في نقل هذه الصورة، فقد ركّز الكوني على تصوير دقيق للقتال المحتدم بين ثوار ليبيا والقناصة والمرتزقة من جيش القذافي في أهم موقع استراتيجي من يظفر به يظفر بالمدينة كلها. وهذا الموقع شهد قتال الثوار إبان الحرب العالمية الثانية ضدّ الايطاليين. هذه الصورة أنتجت حربا غير متكافئة الأطراف بين شباب الثورة الذين يحملون أسلحة لا تكفي لحماية أنفسهم فيقتلون وبين كتائب تمتلك جيشا من القناصة والمسلحين يقتلون كل من يرونه أمامهم.

"يتندرون كأنهم لم يشاركوا في حرب ولم يسفحوا دما ولم يغتصبوا نساء ولكنهم شاركوا بلهو واستمتعوا بلعبة سيئة"[56].

سرعة الثورة:

أظهرت الروائية تحدي الثورة وانتشارها في ليبيا وقدرة وإرادة الثورات الأخرى التي اندلعت في تونس ومصر واليمن على التوغل بقوة نحو بنغازي أولا ثم انتشارها بسرعة في طرابلس وبقية المدن. إن الكوني يستحضر سؤال الحياة الحقيقية بسؤال حلم الثورة الذي يستحق التضحية كما قدمها البوعزيزي بموته في ثورة الياسمين وكما قدمها الأبطال المصريون واليمنيون والسوريون على حد سواء. فالموت في مفهوم الكوني هو قانون الاستحقاق الذي يهب طالبيه الحياة الكريمة، لأن صورة الموت بالنسبة له ليست الصورة القاتمة للموت التي عاشها الشعب الليبي تحت نظام القذافي وأيقونته الخضراء. إنها موت آخر يبعث الحياة للراقدين من موتهم الأول.

"لماذا لا نحذو حذوه كما فعل البوعزيزي قبله؟ لماذا لا نتخلى من موت يبدو حياة وننحاز لحياة تبدو موتا كما فعل بوعزيزي الغرب وكما فعل زيو الشرق"[57].

كما رصدت الروائية مشاهد قتالية ضارية تجسدت في مشهد المعركة بين ثوار ليبيا ومقاتلي القذافي باختزال زماني مكاني حيث تدور رحى المعركة لمدة ثلاثة أيام متتالية داخل مبنى الضمان الذي يشكل مركزا محوريا للسيطرة على المدينة كاملة وهو زمن السرد في الروائية، ويسرد الروائي غافر مشاهد القتل وعمليات القنص والتعذيب والاغتصاب الجماعي والمجون الذي تمارسه مليشيات النظام.

---

(55) المصدر نفسه، ص103

(56) فرسان الأحلام القتيلة، ص85

(57)المصدر السابق، ص133

"كنت أسمع أصوات النساء لا أعرف من أين يأتون بهن مختطفات مجندات من مختلف الجنسيات كانوا يتسامرون بصخب ويتشاجرون لأتفه الأسباب إنه مجون من نوع آخر مجون ملّفق من مرتزقة ومؤنة كافية من أنواع المخدرات والفياغرا والخمور. لم أتخيل أن أكون شاهدا من وراء حجاب على كبيرة ككبائر الاغتصاب[58].

ووسط هذه التناقضات والأورام التي سكنت أدمغة الناس خلال أربعين عاما من الخمول تأتي لحظة انفجار الواقع الحقيقي والمتخيل معا وثوراته وخروج الجرذان - بلغة الثورة المضادة - من جحورها وجدرانها لتحمل السلاح علنا وتقاتل لنيل الحرية في بناية الضمان أعلى بناية في طرابلس حيث تدور الأحداث والمعارك فيها واغتصاب النساء وقتل الأبرياء.

"بالأمس كنت فأر كتب واليوم أصبحت فأر جدران أمس كنت ميت القلب، اليوم استيقظ في الأمل لأجد نفسي أحفر طريقا في الحيطان".[59]

الثورة والإعلام:

يبدو أن الحضور الإعلامي ودوره في الثورة كان شبه منعدم حيث يتخذ الكوني موقفا سلبيا من الواقع الإعلامي التقليدي والجديد وينعته بالمبتذل والمنافق للزعيم. ولذلك يعتبر أن الثورة قامت في جوهرها على قرار الشعب وشبابه متسائلا بتعجب، إذا ما استطاعت وسائل الإعلام الإفلات من قبضة الزعيم ونقل الرسالة والخروج إلى الميادين العامة. "الخروج كان رسالة بإبراز فاتورة الحساب حساب الأحلام القتيلة. هل تنازلت فاستخدمت لغة وسائل إعلام عددتها دوما قرين ابتذال؟"[60].

ولكن من اللافت أن الروائي يستخدم لغة الثورة الواقعية التي شاعت في وسائل التواصل الاجتماعي والشاشة المتلفزة وهي لغة الزعيم القذافي التي تحولت لخطاب مضاد لإجهاض الثورة. وهذه اللغة التي أصبحت محط سخرية وتهكم من قبل الجميع. وهذا التوظيف ساعد في نقل الصورة الواقعية وانعكاس مفردات الواقع (الجرذان، الفئران، زنقة، دار، بيت) وحضورها في المتخيل الروائي. كما ساهم في نقل هذا الخطاب داخل طوابق البناية من سلطة الزعيم إلى استثمارها لصالح الثورة والشعب.

"فتشوا في الزوايا ابحثوا في البناية بعناية لا تنسوا الوصية دار دار شبر شبر"[61].

واقعية الصورة الثورية:

موضوعيا يستخدم الكوني مفردات واقعية الثورة يسقطها على الواقع المتخيل الانساني والديني في الروائية (الجرذان والمرتزقة والأوباش وبناية الضمان الحظر الجوي معركة العلمين تاريخ القبائل الليبية). قد قلنا إن الروائية تقوم على أحادية الصوت وهو صوت الروائي الأنا رغم تعدد الشخصيات ولكن هذا الصوت الفردي يعبّر عن الهم الجماعي المشترك الذي عانى منه الليبيون طيلة أربعين عقدا تحت الاستعمار الأجنبي من قبل وخلال الاستعمار الداخلي القذافي وهو كذلك بالنسبة لبناية الضمان التي كانت شاهدا تاريخيا على هذه السنوات العصيبة.

"بنيان يعود لعهود الهيمنة الإيطالية وورثه الانجليز وها هي الأقدار تضيف عليه أوسمة أحدث عهدا سطرها أبناء المكان بفوهات بنادقهم [62]"

(58) المصدر السبق ص117و ص118

(59)المصدر نفسه، ص13

(60) فرسان الأحلام القتيلة، ص 103

(61)المصدر نفسه، ص32

من المعروف أن الكوني يسوق اللغة المتخلية بقدر وفير وغزير من الفلسفة والفكر والثقافة لتجتمع في مضمون فني وفكري بديع وهو ما أخرج فكرة واقعية الثورة من حيز ليبيا لتصبح لها أبعادا إنسانية مجردة لفكرة الوطن والحرية والصراع بين الحرب والسلم. لكن الكوني استهلك قدرا كبيرا من السرد الذي حصره في مشهد اغتصاب سدرة في مبنى الضمان على يد قناصة القذافي أمام الروائي(غافر) الذي يقبع في زاوية جحر فأر لمدة ثلاثة أيام دون طعام أو شراب من أجل الحفر في الجدران، فيكون شاهدا على الحدث الشنيع حيث اختزلت الروائية هذا المشهد لمساحة سردية وزمنية طويلة وقف فيها الحدث والزمن بشكل مبالغ جدا، ثم تعود الأحداث للنمو من جديد لتدخل مرحلة رد الفعل الثوري عبر المقاومة والمواجهة المباشرة يقوم بها فرسان أحلام ليبيا لا جرذانها لنيل الحرية والسلام في كل زنقة وكل بيت.

"فتشوا في الزوايا ابحثوا في البناية بعناية لا تنسوا الوصية دار دار شبر شبر[63]."

الروائية تتداخل مع النص التاريخي للقبائل الليبية والهوية والأرض والأسماء ومعالم المدن التراث والدين وآيات القرآن الكريم لتحاكم القذافي وتسائله عن هذه المفاهيم التاريخية ليثبت ويبرهن عن حق الناس بهذه الارض وأصولهم وترسيخ جذورهم فيها وليس طمسهم بنظريات القذافي حول استبدال الشعب، "فالشعب الليبي لا يستحق ثورة الفاتح ونظامها الجماهيري والكتاب الأخضر وإن هذه الأرض إنما تناسب شعبا آخرا متحضرا مثل الشعب السويسري".[64] نبلغ اللوثة ذروتها بالدعوة القاضية بضرورة استبدال الشعب تلك سابقة تارخية جديرة باحتلال مكانة بارزة عدم صلاحية أرض الوطن لسكان الوطن[65] .

يتحدث الكوني عن تحليل الحالة الثورية الليبية كغيره من الروائيين اعتمادا على وصف الظاهرة الاستبدادية للنظام المخلوع وأورامه وفساده المستشري وأنه بمجرد سقوط هذا النظام فهو يعني بداية الانتصار للشعب حتى لو كلف ثمنا باهظا من الشهداء والجرحى والمبتورين، كما يصف القتال الشرس في بناية الضمان ولحظة سقوط غافر وتفرق رفاقه المقاتلين هذه اللحظة كان البؤرة الهامة في الأحداث حيث يتداعى تيار الوعي في الشخصية ليعبر عن واقعية الثورة وفلسفة الموت والحياة والحرية، وعبر مشاهد وصفية بطيئة يبدأ غافر في وصف مشاهد القنص والخوف والموت الذي ينتظره وراء أكياس الإسمنت.

"غرقت مجموعتنا في عاصفة غبار حجبتنا عن أقرب الرفقاء، تلتها رشة رشاش ذات نفس طويل ظلت تترد في آذاننا كمعزوفة منكرة. وجدت نفسي طريحا بين أكوام الجدار المهدم كان الغبار يغمرني ويحجب عني الرؤية هل أنا جريح لا أدري؟ لم أكن أدري لحظات الحضور في البرزخ الواعي واللاواعي"[66].

نتائج ثورية:

لقد أفرزت الثورة نتائج اجتماعية متباينة وبدا الشعب ملتفا حول مفاهيم الحب والحرية واستبدل مفهوم الكراهية التي زرعها النظام السابق بمفهوم الحب والتضحية وكان هذا التغيير الاجتماعي من أهم مخرجات الثورة وأهدافها بالنسبة للكوني.

---

(62)المصدر نفسه، ص60

(63) المصدر السابق، ص38

(64) ثورات وخيبات، ص88

(65) فرسان الأحلام القتيلة، ص96

(66) المصدر السابق، ص35

" ولكن يوم اندلاع نار الحريق كان يوم سقوط بعبع الكراهية فهل أحب الناس بعضهم بعضا لأنهم لم يكتشفوا بعضهم إلا يوم قدح الزند بسقط الحريق"؟

كما تمثل أهم انتصار لغافر في الروائية تحديا ثوريا هاما ونتيجة محورية كان يسعى لها غافر بعد حصار دام ثلاثة أيام داخل مبنى الضمان انتهت مهمة غافر في الحفر والحفر المتواصل داخل الجدران للوصول لبوابة البناية، والهدف المنشود كان هذا الوصول هو حلم من أحلام الثورة وأهدافها وكان بتر ساقه هو تضحية للوطن والثورة كما قدم رفاقه أجسادهم كنتيجة لهذه الثورة وأحلامها التي قتلها القذافي.

"هكذا انطلقنا بمسيرنا المميت حفر في حفر. حفر إلى النهاية حفر إلى الأبد الهدف إلى البوابة حيث يرابط سجاننا الكبير حيث يهيمن جلادنا الأوحد حارسا للسجن الذي دفن في زنزانته أحلام الجيل: دفن في زنزانته أحلامنا القتيلة"[(67)].

ولنقل إن النظام الوحيد الذي عرفه الليبيون في عهد القذافي هو اللانظام والفوضى السياسية والجهل بسبب شرعية الكتاب الأخضر وانعدام الديمقراطية والسياسة، وإن سقوط هذا النظام فجاءة يعني الدخول إلى حالة من الفراغ السياسي والفوضى الأشد نتيجة عدم استيعاب الثورة الراديكالية في ظل عدم جاهزية الشعب وجهله التام بالسياسة وسلطة الشعب. غير أن ذلك السقوط الذي كان بداية الانفراج "تلاه مباشرة مجموعة من الظواهر الفوضوية من أعمال نهب وسلب للممتلكات وتخريب اجتاح البلاد خلّفت صدمة لكل الآمال والتطلعات، وسببّت جرحا عميقا بعدما آل إليه الوضع من انتكاسات وممارسات دامية.

"ولكن الجرح الذي فجعني هو ما آل إليه المآل بعد كل هذه القرابين. لقد رأيت بعد تحرير الأحلام أناسا يتجاهلون القيم ويتقاتلون قتالا في سبيل الفوز بالغنيمة"[(68)].

لكن السؤال الحاضر هل يكفي سقوط الأنظمة السياسية المستبدة لتحقيق فعل الثورة وهل نجحت ليبيا وغيرها من الدول في تخطي العقبات الانعكاسية الناجمة عن هذا التغير المفاجئ أم أنها عقبات طبيعية لا يزيلها إلا الوقت بعيد الأمد الذي يعمل على تنظيم المجتمع وتهيئته من جديد لمرحلة أكثر ديمقراطية من سابقتها بغض النظر عن الصراع الداخلي الأهلي الذي انتقلت إليه والعصابات والأيدي الخفية للنظام السابق التي تحركه وحالة الفوضى التي عمت البلاد.

المشهد السوري كواليس ما قبل الثورة – رواية القوقعة-

الثورة السورية هي تجربة فريدة من نوعها في نقل صورة الانتفاضة الشعبية ضد الاضطهاد والاستبداد، فالمعالجة الأدبية التي نقلتها الروائيتان تكاد تكون تجربة لها خصوصيتها في المعالجة ويتضح ذلك من الأبعاد الواقعية للثورة التي تحولت اليوم من حرب أهلية إلى صراع إقليمي مع الأخذ بعين الاعتبار قدرة النظام واستمراره في السلطة حتى الوقت الراهن. لقد انعكست قتامة هذا الواقع العيني على الأدب، فتركزت كثير من الأعمال الروائية على تصوير واقع الظلم وتشريح الحالة السورية من خلال تصوير واقع السجون والمعتقلات السياسية؛ لأنه السلاح الهام الذي يستخدمه النظام في القمع وفي تكميم الأفواه.

لقد تناولت الروائية زاوية هامة ورؤية استشرافية لنبوءة الثورة عبر تحويل الواقعي إلى متخيل مؤلم يصف معاناة الشعب السوري ضد نظام عرف بجبروته واستبداده داخل السجون. وقد كانت تجربة حماة في الثمانينات شاهدا تاريخيا على طبيعة هذا النظام وحتى بعد انطلاق الثورة في درعا لقي السوريون نفس المصير السابق. ومن هنا

(67) فرسان الأحلام القتيلة، ص200

(68) عبد الرحمن اكيدر ، بحث منشور بعنوان: صورة الربيع العربي في الابداع الروائي المغاربي، 2016، مركز جيل للبحث العلمي، ص75

جاء تركيز الروايات السورية في المعالجة الأدبية على إظهار تلك الممارسات اللانسانية وتشريحها لأنها من أهم أسباب ومحركات الثورة التي انطلقت عام 2011.

عتبة النص:

رواية القوقعة للكاتب مصطفى خليفة عمل روائي سابق تمثّل نبوءة الثورة وصراخ المدفونين والأموات تحت أقبية السجون السورية لسنوات طويلة، ولقد جاءت هذه الشهادات الواقعية التي حملتها الروائية نبوءة الثورة وهو ما جعل الكاتب يهدي الروائية إلى هؤلاء السجناء. كما يحمل عنوان الروائية الرئيسي هوية المكان (السجن) الذي يعيش فيه كائن خارج حدود زمانه وعالمه لسنوات من الموت اليومي المعاش كحلزونة في قوقعتها. أما العنوان الفرعي للرواية: يوميات متلصص فهي تدل على واقع الخوف ومشاهد الموت التي تتحرك أمام الشخصية عن بعد فلا يملك إلا المراقبة والتلصص في الخفاء.

إن الروائية تقدم رؤية أيديولوجية مغايرة تماما للرواية يسمعون حسيسها في نقد الآخر الوطني ورفض أيديولوجيته ونبذ الفكر السياسي الذي يتبناه، إضافة لكونها رواية تتداخل مع التماهي السيري للراوي نفسه وبيوغرافيا الروائية فصوت الكاتب هنا هو صوت التجربة الواقعية التي مرّت به وأباح لنا إياها في الروائية وليس صوتا منفردا انعزاليا، -كما يرى سعيد علوش- يبحث عن حقيقة الهوية (هو) لا معنى له إلا في علاقته بعالم مثل تنطلق للتجربة الحياتية بدلا من حقيقة الهوية (نحن) في الحديث الروائي.[69]

استبداد السلطة:

وان كانت الروائية تماثل الأخرى باحتوائها على قدر كبير من مشاهد التعذيب والاستباحة الجسدية والقتل وانتهاك الجسد الذي يبدع بعمله الجلاد "بهدف انتزاع المعلومات واستخلاصها إما بالاعتراف بالذنب الشخصي أو بأماكن الشركاء أو إحداث جو عام من الرعب الذي هو عمليا القيمة الحقيقية للتعذيب في دولة مستبدة"[70]، فالروائية تقوم باستكانة ثنائية الذات والجسد المقاوم حين يُطوّع الجسد كاملا لكل صنوف التعذيب والقمع إما الضرب بالسياط والجلد والتعليق والكوابل والأوبئة محدثا عملية الانفصال الكامل بين الجسد والنفس الروحية التي تحدث عنها منطق ديكارت بقوله" إن ألم الجسد هو الرافعة الفيزيائية التي يمكن الإسناد إليها في إجبار شخص ما على قول الحقائق التي يحملها بشكل سري في عقله. وهكذا لم يعد ينظر إلى الحقيقة على أنها شيء مجرد يسكن الفرد"[71].

"أجالد نفسي خوفا من السقوط يحدث انفصال تام بين العقل والجسد عقلي صافي تماما وواع كل ما يجري حولي، أما جسدي فينفصل عني شيئا فشيئا خدرا وتجمدا.. لا أجرؤ على رفع يدي إلى أنفي حتى لو استجابت يدي[72]."

تبدو ملامح السخرية السياسية ملامسة لوجه الروائية في مستهل صفحاتها حين تقبع الشخصية الإشكالية داخل أحد السجون بعد العودة من باريس، فهو رجل يدين بالمسيحية ذو توجه إلحادي يتهم بانتمائه إلى تنظيم

(69)الرواية والأيديولوجيا، سعيد علوش، دار الكلمة، 1981، ص 97

(70) مايكل كريفان، أدوات ووسائل التعذيب الدار العربية للعلوم، 2002، بيروت، ص9

(71) المصدر نفسه، ص17

(72) القوقعة، ص178

الإخوان وتبقى هذه المسألة القشة التي ستقصم ظهر الروائية إلى اتجاهات عديدة وهي المفارقة الصارخة والساخرة التي تنمو من خلالها الأحداث وتتأزم حتى يطلق سراحه بعد ثلاث عشرة سنة.

"هذه هي المرة الثانية التي أعلن فيها أنني ملحد وكانت فذلكة أيض في المرة الأولى كلفتني وجبة من خرزانة أيوب بأمر من أبو رمزت الذي ذبح المسلمين لأننا نعيش في دولة إسلامية! أما المرة الثانية فإنها ستكلفني سنوات طويلة من العزلة المطلقة ومعاملة كمعاملة الحشرات لا بل أسوء منها."[73]

تمتلئ الروائية بكم هائل من مشاهد صادمة عن عبارات الفحش والذل والعنف الجسدي والجنسي الذي يمارس على السجناء على اختلافات انتماءاتهم الأيديولوجية، كما ساهمت اللهجة العامية بتقريب التجربة الواقعية للقارئ ودقة وصف الحياة اليومية فيها.

"يركض السجين ويصدر أصواتا اعتقد لا أحد يعرف كيف هو صوت الزرافة ولا حتى الرقيب يدور السجين خمس مرات يتوقف يقول الرقيب: ولا حقير هلق بدك تنهق متل الحمار"[74].

واقعية السجون:

تقدم الروائية تفاصيل الحياة المظلمة في المعتقل الصحراوي والشخصية الراوئية تنقل تفاصيل السجن والمشاهدات بتسجيل دقيق لحياة السجناء في لحظات النوم داخل المهجع والطعام والحلاقة وقضاء الحاجة وأبسط الحاجات الأساسية التي يشترك الإنسان فيها حتى مع الحيوانات. هذه اللحظات كانت لحظات مميتة بالنسبة للمعتقلين لأنها محرمة عليهم.

"الذهاب إلى المرحاض يتم وفق نظام خاص بحيث إن الشرطي الحارس في أي ساعة يخطر له أن ينظر داخل المهجع يجب ألا يرى أكثر من شخص واحد يمشي داخل المهجع"[75].

وإذا كانت رواية العتوم قائمة بالدرجة الأولى على الفكر الإخواني وتتبناه تبنيا مطلقا معتبرا أن المرجعية الإسلامية الأساس القويم لبناء أي نظام سياسي، فإن رواية القوقعة تتبنى الفكر المضاد له وهو التيار العلماني الغربي المنفصل عن الأيديولوجيا الدينية في محتواه لبناء نظامه الراديكالي التحرري. وبالتالي فإن خليفة عبّر عن فكرة الصراع والاحتقان السياسي المتبادل بين **ثلاثة محاور سياسية** : المحور الديني الذي يرفضه ويصفه بالتضارب والاختلاف والتعصب والانغلاق الفكري وهو رفض متبادل من قبل الطرف الآخر الإسلامي الذي يسمه بالانحلال والتكفير والنجاسة".

مرة كنت ماشيا باتجاه المغاسل فاصطدمت يدي بيد واحد منهم رجع واغتسل ليتطهر. إذا استخدمت حنفية الماء فإن من يأتي بعدي يغسلها بالصابون سبع مرات لأنني ببساطة "نجس"[76].

وأما المحور الثاني فيتجسد بمحور الفكر الغربي الذي تتبناه الشخصية الذي يبقى على علاقة عدائية مع الإسلاميين "التكفيريين" فداخل السجن هناك أعداء من نوع آخر إنهم الإسلاميون المتشددون. ويحاول الكاتب في هذه النقطة رصد العلاقة المنفية مع الآخر المتشدد الذي يرى الغرب دوما بصورة العدو والكافر ويعتبر كل من يأتي من عنده يشكّل تهديدا جسيما له.

---

(73) المصدر نفسه، ص23

(74) القوقعة، ص88

(75) المصدر نفسه، ص61

(76) المصدر السابق ص47،

"عرفت لاحقا أن ما حفظ حياتي هو أنهم ليسوا مجموعة واحدة، فبالإضافة للمتشددين الذين حكموا عليّ بالموت يوجد تنظيم لم يحمل السلاح ولم يشارك بالعمليات العسكرية"[77].

من جهة ثانية هناك بطش سلطة البعث وعبوديتهم، وبذلك فهو يحيا سجنين داخليين جمعتهما قوقعة الشخصية التي قبعت تحت شعور العزلة والاغتراب وفقدت إرادتها في كل شيء ما عدا التلصص من بعيد على كل ما يحيط عالمها والاكتفاء بالمراقبة الحذرة والحيادية حتى بعد مرور ثلاثة عشر عاما والخروج من السجن الذي حال دون الخروج من أقبية هذه القوقعة.

وأما المحور الثالث فيجسده النظام الحاكم الذي يحكم قبضته الجسدية على هذه الأطراف لأنه لا يملك غير أحادية الجسد" ومسرح التعذيب لتحقيق أقصى أحلام الجلاّد وحشية بالإضافة إلى أبشع كوابيس الضحية"[78] ليعبّر عن وفائه وفدائه لشرعية رئيسه: يعيش الرئيس المفدى. يعيش يعيش يعيش.. وتبقى العصا مغروسة بين إليتي الجثة تتأرجح... إلى الأبد إلى الأبد يعيش الرئيس[79] .

أدلجة الروائية:

ويظهر أن نص القوقعة أكثر انفتاحا واتساعا وتحررا أيديولوجيا من رواية يسمعون حسيسها نتيجة اختلاف المحاور والأطراف الأيديولوجية داخل النص فعالم الروائية مزدحم بالتوجهات والرؤى حتى بين الحزب الواحد، فهو يتحدث عن مستويات الوعي وتباينها في فكر الإخوان أنفسهم، فخليفة يعرض المستوى المعتدل الرافض لسياسية من ليس معي فهو ضدي والذي ظهر في شخصية زاهي ومستوى آخر يظهر في فئة المتشددين والتكفيريين الذي يجمعهم شعور الرفض والازدراء المتبادل وفئة الجماعات الصوفية المسالمة. وهو ما جعل الروائية تعج بالأيديولوجيا المختلفة والأفكار السياسية للتعددية الحزبية بين رجل غير مؤمن بشرعية الإله وجماعة متشددة بهذه الشرعية وبين جلادين يؤمنون بشرعية نظام البعث السياسي وحسب.

"تقول الحضارة الغربية! انظر يا أخي أنا مشلول بالكرسي الألماني ومحمد مشلول برصاصة استقرت بعموده الفقري مصنوعة في روسيا القيود التي كبلوا بها يدي مكتوب عليها صنع في إسبانيا"[80].

ولنقل إن الروائية نقلت أبعادا واقعية ممتدة للتجربة الإنسانية داخل السجن ولم تتعامل مع الشخوص على أنهم "مثال" تام وكامل لا يعتريه خطأ أو على أنهم أيديولوجية ثابتة وصائبة وواضحة التوجهات والأهداف كما هي في يسمعون حسيسها ، وهو يدل على شيء من حيادية الراوي في رؤيته البانورامية وطرحه للرؤى أو على ثقافته الليبرالية القادمة من أوروبا.

فسحة الأمل:

المرأة والحلم هما أهم وسائل الخلاص من معتقل تدمر لكافة السجناء ولذلك فإن انفتاح الذاكرة على صورة المرأة وتخيلها هو الراحة الوحيدة التي يمارسها السجين في أثناء نومه خلسة دون أن يلاحظه أحد وسواء كانت هذه المرأة جزءا من ماضية وواقعه الأصلي، أو كانت صورة رسمها في خياله، ففي هذه الحالة يحق له أن يختار من

(77) المصدر نفسه، ص77

(78) مايكل كريفان، ص12

(79) المصدر نفسه، ص228

(80) القوقعة، ص83

يشاء. ولذلك كان على الروائي أن يستحضر خطيبته سوزان كلما ضاقت نفسه ليلا، فالسجن قد يتلخص بغياب المرأة في الواقع. وبالتالي لا يملك السجين إلا أن يستحضرها بذهنه:

"لحظتها لو سألوني أن ألخص السجن بلمة واحدة لقلت: السجن هو المرأة غيابها الحارق"[81].

لقد شكل الحلم (اليقظة) مرتكزا هاما وملتحما بالبنية الروائية لأنه السبيل الوحيد لهروب الشخصية من واقعها المأزوم أو الوقفات الزمنية لاستحضار أحد الشخصيات الثانوية من الماضي أو الواقع الخارجي لها وتماهيها معه وخلق عالم يوتوبي ذهني يبعدها ولو للحظات زمنية قصيرة عن واقعها السفلي.

"استعرض الماضي وأحلم بالمستقبل تحول الأمر إلى عادة أحلام اليقظة استمتع بها استمتاعا كبيرا"[82].

ورغم أن الروائية تسجل يوميات للشخصية معنونه بتواريخ لها فإن القطع الزمني يستبيح آلية الزمن التراتبي للأحداث الرئيسة الممتدة لثلاثة عشر سنة مع سيطرة الزمن النفسي على الروائية بهدف تعرية الذات الداخلية للرواية وكشف أزمتها وتشظيها وأورام واقعها من العذاب وانعكاسه عليها."

"ماذا أصبح لي في السجن خمس سنوات سبع عشر الحقيقة لم أشعر بهذا الزمن تعرف أن هذا الإحساس ناتج عن زحمة التفاصيل وهذا كالجلد بالكرباج إذا بدأت عد الضربات حتما سوف تضعف وإذا بدأت عد الأيام ختما سوف تضعف أو تجن"[83].

رواية - " يسمعون حسيسها" –

تبدو رواية "يسمعون حسيسها" للكاتب الأردني أيمن العتوم محاولة جادة لقراءة الواقع السوري الجهنمي في أحد المعتقلات السياسية وهو سجن تدمر الذي حاول الكاتب استحضراه تزامنا مع واقع الثورات العربية التي أصبحت سوريا المحطة الأبرز التي يصطّدم بها هذا الواقع نتيجة تمسك النظام بالسلطة، لذلك فالروائية من ناحية تشكل منعطفا هاما باعتبارها تصنف من روايات "أدب السجون" الذي قلّما نجد هذا النوع من الكتابة متوفرا بين أيدي القراء لارتباطه المباشر مع السلطة وعدائيته لها، فالكتابة والبوح فيه يبدو نوع من المجازفة في الاعتراف، لا سيّما إذا كانت هذه السلطة استعبادية لا تؤمن إلا بمبدأ القوة والعصا الغليظة وليس الحديث عنها غيمة صيف عابرة ومن ناحية أخرى إن الروائية تزامنت مع الواقع العربي الجديد والعهد الثوري.

عتبة النص:

يشير عنوان يسمعون حسيسها إلى دلالة جهنمية سجن تدمر وواقع هذا المعتقل وهو إن كان يدل على محتوى لا يمكن تصوره من القسوة والعذاب، فإنه كذلك يوحي بالتوجه الأيديولوجي الإسلامي الذي يعبر عنه العتوم دوما ويستقي منهجه منه. ويتماثل عتبة النص في هذه الروائية مع رواية القوقعة الذي يعكس هوية المكان والمشاهدات الحية للطبيب إياد أسعد داخل سجن تدمر بين عام 1980-1997 وكما يحمل الإهداء أمل الثورة السورية والتحرر من ظلم هذا النظام.

"إلى الشمس الطالعة من هناك كي تملأ الكون بالنور بعد عقود من دياجير الظلام القاتمة"[84].

---

(81) القوقعة، ص112

(82) المصدر نفسه، ص112

(83) المصدر نفسه، ص184

(84) يسمعون حسيسها، ص5

استبداد السلطة:

الروائية جاءت لتؤكد هذه الثورة وتدعمها ولم تأت فقط لتسجل أحداثا سياسية واعترافات سجين طوّع جسده للتعامل مع ألوان العذاب والاضطهاد الجسدي ووسائل التعذيب (الخازوق والدولاب والكهرباء والسياط والكرابيج والتجويع)، وإنما هي نداء وبعث واستمرارية للثورة السورية التي ما زالت تشتعل نيرانها في كل المدن السورية التي ارتدت على ثوارها وتحولت إلى حرب أهلية أحرقت الطائفية والمذهبية آلاف من أهلها، حتى أصبحت كالهرة التي تأكل صغارها.

"هوى أبو نذير بعصاه على رقبة الأول فجثا كأنه ضرب على كتفه لا على رقبته وقدم له الحرس وليمته من الفئران الميتة أما الثاني فراحت الصراصير تنبع من أذنيه ووجهه وهو من هول المشهد عن نفسي فعلتها تحتي مبكرا"[(85)].

الروائية المحصورة في ثلاثمائة وخمسين صفحة من رحلة العذاب والاضطهاد والتنكيل الجسدي والنفسي داخل أقبية سجن تدمر الصحراوي للمعتقلين الإسلاميين الذين كانوا على علاقة ضدّية مع نظام البعث السوري، وتقرأ الحالة السياسية و"الحرب الأهلية المصغرة والموحلة التي لم تَخلُ من معالم حفظتها الذاكرة بقتل قرابة 1300 سجين" خلال موجة أحداث دامية شهدها نفير حماة عام 1982 في عهد حافظ الأسد وتميز الاحتقان السياسي باستقطاب حاد ما بين الإخوان والاشتراكيين، حيث ما لبثت العضوية في جماعة الإخوان أن أُعتبرت جريمة عقابها الإعدام"[(86)] تأكد حضورها في الروائية بإعدام 699 معتقلا. تلك الرحلة كانت تجسدها الشخصية الإشكالية الطبيب "إياد أسعد" في مهجع رقم 22 على مدى سبعة عشر سنة من العمر. إذن فالعتوم استحضر هذا الحدث التاريخي والمجزرة المؤلمة لتتداخل مع الواقع السوري الثوري الراهن وإسقاط البعد التاريخ وصبغه بألوان الواقع معتبرا أن محنة سوريا في الثمانيات التي عايشها الوعي الشعبي السوري في عهد الأب تولد ثانية وبقوة أكبر في عهد الابن الآن.

"في آخر شهرين من عام 1983 زاد سعار الدولة. بدأت تحطم كل شيء وتدمر كل ما يقف في طريقها. قتلت، أعدمت، شنقت، ارتفع عدد المعدومين ارتفاعا خطيرا أعدموا في أحد الأيام 90 شابا"[(87)].

لم تكن مشاهد التعذيب للنظام البعثي أمرا يطبق فقط على السجناء وحسب بل تعدى ذلك ليشمل كل جندي وضابط عسكري لا يروق لأبي نذير وهو هرم السلطة في السجن:

"تقدم نحو العقيدين نزع رتبهما العسكرية وهوى بعصاه على رقبة الأول فجثا وقدم له الحرس وليمته من الفئران الميتة، أما العقيد الثاني فراحت الصراصير تنبع من وجهه وأذنيه وعينه". [(88)]

كما يصور الراوي حجم الفساد في السلطة واستغلال المنصب بمفارقة مضحكة حين يعرض أبو نذير للمحاكمة بتهمة استغلال المنصب، ولكن العجيب أن الحكومة تعين من هو أسوأ من أبي نذير.

"حوكم أبو نذير بتهمة استغلال المنصب وما في سوريا أحد في منصبه إلا واستغله أبشع استغلال لقد كان لسان المحكمة يقول: نهشت فارتويت وأكلت فشبعت وجاء دور غيرك ليأكل وينهش فتنح جانبا"[(89)].

---

(85) يسمعون حسيسها، أيمن العتوم، ص97

(86) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، فيصل دراج، ج1، ص51

(87) يسمعون حسيسها، ص73

(88) المصدر نفسه، ص97

(89) المصدر نفسه، ص302

أدلجة الروائية:

واختار العتوم عنونة يوميات بطله في الروائية بمجموعة من العناوين الفرعية التي تتضمن الأحداث اليومية النامية والصادمة وتدور حول الشخصية المحورية ومع من حولها، وهو ما أبرز للرواية بعدا واقعيا ملازما للحدث المتزامن مع الثورة السورية ونمطا شكليا حداثيا في الكتابة، يبدو أكثر تناسقا وانسجاما مع تجريبية الروائية وخروجها عن الأطر التقليدية السابقة، غير أن هذه العناوين التي وُشحت في أحيان كثيرة بآي القرآن الكريم جاءت بقصد أدجله البنية الروائية التي قامت على مستويين فكريين متنازعين هما: المستوى الديني المُسّيس الذي يؤمن بمرجعية الدين والأصولية في السياسية ليكون "امتدادا حركيا للإصلاحية السلفية المشرطية في مواجهتها الحادة للنموذج العلماني الكمالي ومحاولة تطويق آثاره وامتداده إلى العالم الإسلامي"[(90)] الذي تمثله جماعة الإخوان المسلمين أو بمعنى آخر الضحية وكبش الفداء السياسي برأي العتوم الذي يعدّ واحدا من أنصار هذا الاتجاه وراثيا وفكريا"[(91)].

"صلينا الفجر بالإيماء وقف عند طلوع الشمس ضابط على الباب، وبدأ ينادي على الأسماء، كل اسم خرج ظلت تلاحقه الكيبلات الحديدية حتى فورت الدم من جسده، وهو يساق إلى مثواه الأخير حشرنا في زرائب لا يعلم إلا الله أنها لا تصلح للدواب"[(92)].

أما المستوى القومي الذي ينكر المحتوى الأصولي للدين وارتباطه بالسياسة ولذلك يرفض بناء أي علاقة توقيفية مع السلطة فهو محتوى فارغ ومجرد عن المضمون الديني العملي الذي يرتبط بالنظام السياسي، فالحديث عن الدين لا يخرج عن كونه مسالة روحية (علمانية) بحسب المفهوم "العفلقي" الذي هو جوهر حزب البعث، ولذلك فإن "الفهم الديني الذي يتسق والقومية العربية للأمة هو تعبير حضاري وروحي وليس مبدأ أو عقيدة أو أيديولوجيا"[(93)]. وهذان المستويان يظلان في نزاع دائم ومحتدم تظهر فيه الهيمنة القومية للنظام الحاكم (السجانون وأبو نذير والرقيب وصولا إلى السلطة العليا) في حين تظهر الجماعة نموذج للضحية السياسية.

واقعية السجون:

ولعل العتوم استطاع أن ينقل ويصور أدق التفاصيل اليومية المعيشة داخل السجن حيث قدم رؤية بانورامية شاملة لوصف المعتقل ومكان السجن والإسقاطات النفسية على المعتقلين في المهجع والزنزانة الانفرادية وغرف الإعدام وسلطة السجن وطرائق وضروب التعذيب المهينة، إلى حد يستحيل تفاعل القارئ نحوه سؤال جدلي إذا كانت الثورة السورية التي يعتبرها البعث "مؤامرة كونية" في الحديث الإعلامي لتفتيت الدولة إلى دويلات وإضعافها وإلى أي مدى يمكن وصف مساحة الحرية السابقة التي كان ينعم بها أهلها قبل الثورة هل هي الهالة الأمنية المستقرة التي أحاط بها البعث شعبه كقبضة حديدية في قفاز مخملي طوال عهده أو قدرته الاقتصادية لتحقيق أكبر قدر من الاكتفاء الذاتي؟!

كما استدعى تيار الوعي والتداعيات المكثفة سيلاً مندفعاً من الأسئلة الوجودية التي تحاصر الواقع وتسائله، لتجد إجابة شافية يعينها على فهم وجودها وتفسيره، وغالبا ما يتماهى هذا التيار مع طغيان الزمن النفسي الذي يعكس سوداوية الواقع وآلامه الحادة وقهر للزمن الواقعي اليومي الذي انفصلت عنه الشخصية انفصالا تاما.

---

(90) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، فيصل دراج، ج1، المركز العربي للدراسات، 2000ص43

(91) يعتبر أيمن العتوم من أنصار الاتجاه الإخواني في الأردن

(92) يسمعون حسيسها، ص100

(93) بو علي ياسين، المركز العربي للدراسات، 2000 الأحزاب والحركات القومية العربية، ص242

من قال إن الأزمنة تدور؟ الزمن غلاف يحيط بفضائنا المقهور هنا ونحن الذين نتخطاه إلى وادي الموت دفعنا بيد من حديد فسقطنا في هوة الغياب [94].

يحاول العتوم تصوير الاتجاه الإخواني في الروائية على أنه مجتمع غاية في التحضر الفكري وقبول الآخر منفتح على كل الاتجاهات المغايرة له ذو توجه معتدل الفكر والسلوك بعيدا عن الغوغائية والتعنت والتكفير، وقد جاء استحضار شخصية "قسطنطين صرّوف" معادلا موضوعيا ثابتا يبرهن على ذلك؛ فهو شخصية تدين المسيحية واعية لمبادئ الإسلام ومتعمقة في دراسة وتفسير القرآن الكريم واللغة العربية بل وتنظم حلقات تدريس داخل المهجع لكثير من الإسلاميين، وهو بقدر ما كان شيئا يفخر به "إياد أسعد" إلا أنه بقي شيئا مستعصيا على الفهم له أيضا في آن معا حتى بعد موته بالتيفوئيد.

"أما أنا فقمت واعلنت بوضوح أنني سأصلي عليه كصلاتنا على المسلمين أمام الجميع صلينا عليه بخشوع وبمحبه، مات ومات معه سرٌ حافظ عليه عشر سنين ظل معلقا بين يدي ربه الكريم"[95].

حلم الثورة:

ما تتميز به رواية العتوم قدرتها على المزج بين حلم الخلاص من الاستبداد سواء كان معبرَّ عنه في مهاجع السجن أو في سقوط النظام ككل من الدولة، ولهذا فشخصية إياد تؤمن بمبدأ التحول التغيير الراديكالي في المجتمع. ورغم ما يوحيه السجن من حالة موت وحصار لا مفر منها ولا خلاص ورغم ذلك، فإن السجناء كانوا مستعدين للتحدي وللتضحية الجماعية والموت صفوفا من أجل نيل الحرية، ولاسيما أن تأسيس الخطاب الديني في الروائية يعمل على شحن النفس بالصبر والثبات حتى يدنو الفرج.

"نقبل أن ينحطم نصفنا في الطريق العاثرة على أن يبقى نصفنا الآخر دون حطم لعل في حياة أخرى قادمة عمرا ما يستحق أن نبقى أحياء لكي نشهده"[96].

الخلاصة:

ومن هنا فقد حظيت الروائية العربية باهتمام بالغ في مواضيع الثورات العربية وكانت تلك استجابة طبيعية ومنطقية للأدب لعرض واقعية الثورة وصداها في كل دولة، كما اتسم واقع الثورات بتباين ملحوظ انسحب ذلك على تباين الروايات أيضا في المستوى الفني والمضمون، فقدمت الروايات نماذج مغايرة ومختلفة بسبب القالب السياسي الخاص لكل مرحلة ثورية لها جعل لها طابعا مميزا ونمطا خاصا. كما عانت ثورات أخرى من شح في الإنتاج الروائي كما الحالة في اليمن وتونس. وبين غزارة الإنتاج وشحه كميا نجد أن الروايات الثورية في المجمل كانت دون المستوى الفني والمضموني الذي توقعناه. وربما مردّ ذلك لحاجة الروائيين في الالتحاق بهذه المرحلة المستعجلة والطارئة على الواقع ومواكبة الأحداث الراهنة، وما تبعها من صدمات سياسية واضطرابات لم ينضج لها الأدب أو يستعد لاستقبالها. الأمر ذاته انسحب على المضمون الثوري الداخلي، فغالبا ما عالجت هذه الروايات الظاهرة الثورية بشكل وصفي يركز على مرحلة ما قبل السقوط لوصف حجم الفساد والظلم المتفشي في الدولة أو لعرض الحالة الثورية لحظة سقوط النظام. وفي كلتا الحالتين هما عملية كشف معلن لمظاهر البؤس والفساد وهي معالجة

(94) يسمعون حسيسها، ص169

(95) يسمعون حسيسها، ص255

(96) المصدر السابق، ص304

انصبت على الجانب الاجتماعي وتأثير الثورة عليه فقط دون الالتفات للجوانب السياسية المتعلقة به والمرحلة الانتقالية أو العلاجية أو تحدي لبناء مبادئ الثورة أو حتى لنقل الفراغ السياسي والحروب الأهلية التي نتجت عنه.

ومن اللافت أن الروايات ارتبطت بمحتوى أيديولوجي محدد ينبثق عن رؤية سياسية للكاتب عبرت عنها روايات الثورة السورية تحديدا بالاتجاه الليبرالي والإسلامي. ورواية الثورة المصرية التي ارتبطت بالتحررية النسوية ونقد الآخر السلطوي في حين أن رواية الثورة الليبية خلت من المضامين الأيديولوجية.

في مصر فقد حاولت رواية الثورة أن تثبت نجاح الثورة وفوز الديمقراطية في الإطاحة بنظام مبارك والإسلام السياسي برغم حالة التناقض والفوضى التي تعاني منها مصر الآن والظروف الاقتصادية الأسوأ التي تمر بها الآن التي تؤكد تأزم الثورة لا نجاحها.

لقد قدمت الروايات الثورية رؤية بانورامية شاملة مزجت بين الواقعي والمتخيل وأضفت عليهما التجربة الإنسانية الخاصة بكل مشهد بناء على معالجة كل روائي لها، فامتلأت بأحداث تاريخية للثورة وأسماء للأمكنة والشهداء والثوار، ويظهر ذلك في" إنه الدم" و"فرسان الأحلام القتيلة" كما نجد أن بعض النماذج السورية اعتمدت على الأدلجة السياسية في معالجتها لقضية الثورة مثل "القوقعة" و"يسمعون حسيسها".

وغالبا ما نرى أن الروايات اهتمت بإبراز اللهجة العامية الخاصة في كل دولة وظهرت كجزء مهم في البناء السردي من قبيل تقريب الصورة الواقعية والمشهد الحقيقي الذي يرسمه الروائي واستثمرت في صناعة الأهداف والمواقف والشخصيات، والتصقت لغة الواقعي مع المتخيل لإنتاج الخطاب الثوري وإضفاء المصداقية والواقعية بأقدر قدر ممكن. كما تأثرت لغة العتوم والكوني باللغة الدينية وكانت رواية الكوني من أفضل الروايات على صعيد الرؤية الفلسفية العميقة لكنها لاقت نقدا بسبب تفتت البناء الدرامي وبطئ السرد فيما كانت رواية السعداوي من أفضل الروايات التي قدمت الثورة المصرية كثورة امرأة وشعب في آن معا وكذلك على صعيد التشكيل الفني وتعدد الأصوات والشخوص وتقنية الاسترجاع الزمني والمونولوج الداخلي.

أما بالنسبة للنموذج السوري فهو مختلف تماما لأن الروايات السورية أظهرت الناحية السوداء من طبيعة النظام وبالطبع ستكون السجون أفضل مكان يعرض صورة هذا النظام وأهم دافع من دوافع الثورة ضده. فتركزت على إظهار فضائح النظام وعرض الجرائم التي أُرتكب في عهد الأب والابن معا لعصر الثورة أو ما قبل الثورة داخل السجون كما في نبوءة "القوقعة" ورواية يسمعون حسيسها الصادرة وقت اندلاع الأحداث مسلطة الضوء على البعد الأيديولوجي الأحادي الجانب الذي يدور في فلك (ضد ومع) دون التطرق إلى ذكر أبعاد الثورة ذاتها وقضية اللاجئين والمشردين ومواقف المعارضة من الثورة أو مسؤولية المجتمع الدولي.

المصادر والمراجع

الروايات:

1. خليفة مصطفى، القوقعة، دار الآداب،2009، بيروت.
2. السعداوي نوال، إنه الدم، شركة المطبوعات،2014، مصر
3. العتوم أيمن، يسمعون حسيسها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2013.
4. الكوني إبراهيم، فرسان الأحلام القتيلة، مجلة دبي للثقافة والنشر،2012.

المراجع:

1. ابن خلدون، المقدمة، دار صادر، بيروت
2. ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت،ج4.
3. أرندت حنة، في الثورة، ترجمة :عطا عبدالوهاب، المنظمة العربية للترجمة،2008،بيروت.
4. بشارة عزمي، في الثورة والقابلة للثورة، المركز العربي للأبحاث،2012،الدوحة.
5. بلقزيز عبد الإله، ثورات وخيبات، منتدى المعارف، 2012، بيروت.
6. بلقزيز عبدالإله، أسئلة الفكر العربي المعاصر، دار الحوار،2001، اللاذقية.
7. الجابري محمد، الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1983
8. حرب علي، الثورات الناعمة ،الدار العربية للعلوم،2011، بيروت.
9. الحروب خالد، في مديح الثورة: النهر ضدّ المستنقع، دار الساقي،2012، بيروت.
10. حسن مصدق، وثائق ويكليكس وأسرار ربيع الثورات، المركز الثقافي العربي،2012، المغرب.
11. دده محمد، الربيع العربي إلى أين، وزارة الثقافة،2012، الأردن.
12. دراج فيصل، الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية،ج1، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية،2000.
13. روسو جان جاك، العقد الاجتماعي، ترجمة: ذوقان قرقوظ، دار القلم، بيروت.
14. عبد السلام رفيق، العلمانية والدين والديمقراطية، مركز دراسات الجزيرة، الدوحة،2008.
15. العروي عبد الله، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
16. العظمة يوسف، العلمانية من منظور مختلف، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1992.
17. علوش سعيد، الروائية والأيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة،1981.
18. غليون برهان، العرب وتحولات العصر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1،2003.
19. غليون برهان، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، دار الطليعة، بيروت،1979.
20. فيشر أرنست، ضرورة الفن، ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة ،1971.
21. الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة ،ج1، الموسسة العربية للدراسات والنشر،ط1،1979.
22. كيريغان مايكل، أدوات ووسائل التعذيب، الدار العربية للعلوم، 2002، بيروت.
23. ماضي شكري، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي،1993،ط1، بيروت.
24. مبارك علي، ثورات العرب، دار العين للنشر، القاهرة ،ط1،2012.
25. مونسكيو، روح الشرائع ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2010، القاهرة.
26. الميناوي رمزي، الفوضى الخلاقة، دار الكتاب العربي،2012، ط1،القاهرة.
27. نعمان عصام، الثورات العربية بين المطامع والمطامح، منتدى المعارف،2012، بيروت.
28. وادي طه، الروائية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية،1996.
29. ياسين بو علي، الأحزاب والحركات القومية العربية، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية،2000.

Abstract: Literature emanates from reality in all different political and social dimensions and the fact that the Arab Spring and its revolutions form a climax in the Arab world.

This paper investigates the reflections of political realities that pertain to the Arab Spring and some of Arab revolutions that took place in the last few years (Egyptian, Libyan, and Syrian). As well, it traces its manifestations, ideological visions , the most important of characteristics of these events in terms of populism, the role of media, speed of revolution and the results. in the contemporary Arab novel, with much focus on these novels. IT Is Blood tackles The Egyptian scene, The Chivalry of Slain Dreams discuses Libyan scene, The Shell and They Hear its Whisper discus the Syrian scene.

This analysis shows the weak literary analysis on the level of vision and formulation that its blood was the best work that presents the Egyptian revolution; whereas, The Chivalry of Slain Dreams was very weak on the level of construction. In addition to this, the Syrian experience was confined to the ideological vision. Moreover, the study shows the literary weakness that is resulted from the political realities of the political detainees.

Keywords: Arab Spring, Contemporary Arab Novel, Revolution, Political Realities, Media, Authority, People.